


سعيد حورانية

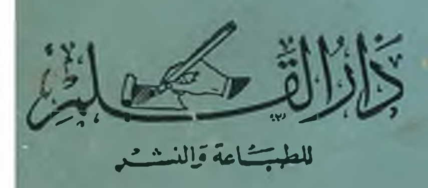
# وفي الناس المسرة

قدم له

حنا مينه





سعيد حورانية

# ... وفي الناس المسرة

قدم له

حنا مينه



الطبعة الاولى

٦ / ١٩٥٣

# مقدمة

... وفي الناس المسرة !

ليس هذا بالعنوان الضخم ... انه بسيط كالناس الطيبين ، الا انه انتزع اعجابي كلما اقول تصفيقي .

يقولون « ان من البيان لسحراً » ، فلا بأس ان نضيف : ان من البساطة لسحراً .

تلقيت ذات يوم رسالة من جارة فقيرة ، تقول فيه على السطر « لحضرة الخواجه حنا من ام بولص »

اعتقد ان هذه الكلمات الساذجة ستحيا معي ما حييت ، لانها صدرت ، ببساطتها المتناهية ، عن واقع الحي الذي نشأت فيه ، والاكواخ التي لعبت في ظلالها ، والاحلام التي داعبت مخيلات اهلي وجيراني ، عندما كانوا يتحلقون حول مواقد الطـــين ... فتنبعث ، مع نارها ، ذكريات شقائهم واضواء رجائهم ... انها تحمل الي ، ابداً ، رائحة التراب .

على انني ، ويجب ان اقرر هذه الحقيقة ، لم اتمثل عبارة « ... وفي الناس المسرة » تمثلاً منفصلاً لسببين : ايماني بارتباط الاشياء وتفاعلها ، ومعرفتي السابقة ، بان عبارة « على الارض السلام » سبقت « وفي

الناس المسرة ،

السلام والمسرة ...

لا استطيع ان اصف الاطمئنان الذي تبعثه هاتان الكلمتان في نفسي . ان لهما وقعاً عجيباً ، دافئاً ، مشرقاً ، احس به يداً رفيقة ، يداً قدسية ، تمتد بعزم وتصميم . فتزيح السجف السوداء عن مستقبل حياتي وحياة الناس ، وتضعنا من الزمان والمكان حيث يجب ان نكون امام الشرفة المطلة على عالم الغد... لنستقبل الفجر الجديد القريب الذي نحن معه على موعد .

اخي سعيد !

عفوك عني ، كدت انساق مع عاطفتي ، فادعك واتحدث عن نفسي ، ولكن في الحقيقة ، من هو سعيد ، ومن هو حنا ، بل من هو شوقي ومواهب وصلاح وحسيب ونبيه وغسان ... من هم هؤلاء الذين اجتمعوا على انبل ما يمكن ان يجتمع الناس عليه : السلم والحرية ؟

يجب ان اقول ان عنوان كتابك حملني على اجنحة غير منظورة انتشلني من حاضري ونقلني الى مستقبلي ، ثم اوقفني في دائرة ضوئية ، تحت حزمة وهاجة من نور الفكر الانساني ، الفكر الذي كانت له تراثه ، ضل طريقه الطويلة الممعنة في الصعود نحو قمة المجد ، هذا الارث من بطولات النضال ، وهذا الكنز العظيم من الافكار ، والحصيلة الكبيرة من النجاحات .. ومن الأمل الذي لا يتزعزع بانتصار الحرية والسلام وفي كل مكان .

اما قصص الكتاب فلست احب الحكم عليها ، ساترك هذه

انهية الى القراء ، مع التأكيد انك تثب ، في مضمار القصة العربية الصحيحة ، الناجحة ، وثباً ، وتجتهد لابراز الشكل والمحتوى في كل واحد .

ان في هذه القصص انعطافاً واضحاً نحو الاستمداد من المجتمع من الحياة ، بكل ما فيها من آلام وآمال وعواطف ونوازع ، وانني لالمح ، من وراء السطور ، موهبة قصصية مباركة والمس روحاً انسانية صافية ، رقراقة حيناً ، صاخبة حيناً آخر ، تستطيع ان تعكس بصدق ، امال شعبنا ، وصور حياتنا ، ولوحات مجتمعنا باسلوب جزل لا تكلف فيه ولا زخرفة لفظية .

ان الايمان بالانسان ، وبقدرة الخير على هزم الشر ، مهما كانت المصاعب والعقبات ، يتلاحمان في قصة «سريري الذي لا يئن» ومن هذه النقطة ، في الفهم الصحيح العميق ، يمكن ان ننطلق بعيداً الى حيث نشاء ، آخذين في حسابنا دائماً ، وكما فعلت انت ، قضية ايثار افكارنا على عافيتنا في جمع مراحل الطريق .

لقد جاء في بيان « رابطة الكتاب السوريين » هذا المقطع :

« نحن كتاب تقدميون بكل ما في الكلمة من خصب . تقدميون لاننا نستهدف ابداً ان نمشي الى امام ، حيث يتلامح هدفنا . اننا نؤمن بأمتنا ، ونؤمن باننا نستطيع خدمتها ، واننا لن نكون كتاباً اذا لم نعش حياة امتنا . ان هدفنا هو ان نعمل للشعب لاننا منه ، ولان الفن الصحيح هو الفن الذي ينبع من حياة المجموع . ان الاثار العظيمة الباقية هي الاثار التي غيرت وجه الحياة فاغنتها واكسبتها اشياء صالحة جديده . لم يعد هناك

— كما يقول بعضهم — من فن للفن — ولا من زهر للزهر . ان الفن هو للناس » .

وفي قصص الكتاب قدلا تبرز جميع خصائص هذا الدستور الادبي ، الا ان فيها انعطافاً اكيداً نحوه ، ان فيها نموذجاً للانسان الذي نريد ان نتكلم عنه ونضع فننا في خدمته ، وهذا ما يصح قوله بالنسبة لسائر اعضاء الرابطة في انتاجهم الجديد .

كان بودي ان اتحدث عنك شخصيـــاً ، ان اصف اثرك في نفسي ونفوس اخوانك اعضاء الرابطة ، ان اتحدث قليلاً عن محتوى كتابك الى القراء ، الا انني ادع ذلك الى قصصك ، فهي قادرة وانا عاجز ...

**حنا مينه**

# الطفل يصرخ في الظلام

نالت هذه القصة الجائزة الثانية في مسابقة

مجلة النقاد عام ١٩٥٣

## -١-

في نفس الوقت تماماً، وساعة محطة الحجاز الحديدية تدق الثالثة بعد منتصف الليل ، فيصل اليها مكبوتاً كأنين هادىء حزين ... كان يتمدد الى جانبها في اعياءه ينفخ كنور مجهد ، وجسدها يتضمر وينكمش في تقزز ، وحينما كانت تدير وجهها الى الحائط ، الذي تنبعث منه رائحة الدهان الجديد هاربة من انفاسه الملوثة ، كانت تحاول خنق حقدها الحار ، وتحس انه الى جانبها كحقيقة فظيعة مرهقة ، وجسده الممدد ، يبعث الى ظهرها دفئاً قوياً ... وتسمع انفاسه تنحبس مثلما تنحبس انفاسها ، ويرين صمت ، ثم تنطلق انفاسها في تقطع لتختلط مع انفاسه المتقطعة .

لقد كان هو الاخير ، في الجانب الآخر من الفراش ، يفكر ، وكانت تشعر شعوراً حاداً بأنه يفكر بما تفكر فيه ، وتنطلق منه سعلة متسللة في السكون ببطء ، كانت تصل اليها مع موجة من رائحة العرق فتنبئها بارتباكه ، وبثقل الصمت العميق حولهما ،حتى اذا تحركت حركة بسيطة ، وطقطق السرير العريض تحتها،احست

انهـــا اجابته اجابة تعرف يقيناً انه هناك ، في الطرف الآخر ، يفهمها جيداً .

هذا الجسد المتمدد ... بعيداً عنها كأنه ينفصل عنها مئات الاميال ... كان يشع نوراً باهتاً لا يلامس كيانها ، انه عود جاف في شجرة لا تزال منشبكة تقاوم بعناد ، ولكنهافقدت جاذبيتها . وحتى الطيور الملكى التي تترنح تعباً ، كانت تمر بها دون انتشعر بوجودها ... ان خشبها تابوت ..

لقد كان يستطيع ان يكون لحماً ودماً لو انه ... وفكرت وهي تختنق تحت اللحاف السميك،انها لا تستطيع ان تنفصل عنه ، ولقد ربطت الى عجلته التي تدور ببلاهة ، ورتابة ميئسة .

ووصلت الى سمعها سعلة اخترقت السكون ، وفاجأت انفهـا رائحة العرق البغيضة من جديد ، فحبست انفاسها ، وسمعته يشهق بتقطع ، لقد شرب الليلة كثيراً .. اكثر من المعتاد .ـ ما جد !!

وخيّل اليها ان صوتها قد بدا واخزا تحشره ليلة ، وانقطعت الانفاس فجأة ، وانقضت مدة طويلة قبل ان تسمع صوته الثخين الذي تشوبه بحة المدمنين على الشراب والتدخين يقول بهدوء :

ـ نعم ...

وبدت الكلمات مرة في فمها

ـ هل انت بخير ؟... أعني .. هل تحتاج شيئاً ؟

وانتظرت اجابته في الظلام وصوت صفير قطـــار بعيد يملأ الهواء وهي تحترق تحت الغطاء .

ـ انني بخير .. لا احتاج شيئاً ...

نفس السخرية التي تنبعث عن احساس أليم ، ورفعت يدها تمسح عرقها ،وتنزل اللحاف قليلاعن عنقها ، وصوته ينبعث هادئاً مسراً؟
– شكراً على اهتمامك ..
وانخفضت المخدة تحت رأسها قليلا ، وطقطق السرير وهو يدير ظهره ، فتنهدت بعمق ،ومدت رجليها اللتين قلصتهما رغم الحر الشديد.
في هذه اللحظات كانت تشعر انه مسكين يحتاج الى الشفقة ، وانه مدين بحظه التعس لهذه الاقدار التي ترمي الزهر في استرخاء بقرة تقضم رسنها ، ولكنها عندما تفكر انه كان باستطاعته ، هو بالذات ، ان يسير حياتها ، كانت هذه الجمرة الضئيلة كبراعـــة ، تغطس في بركة ماء.
تنوى لو انه الآن ... ولكن هذا مستحيـل ، لقد انقطع ، انقطع منذ زمن بعيد ، نفس الفراش ، نفس الغرفـــة . سوى الدهان الجديد ، الذي لا تزال رائحته تختلط مع انفاسهـا ، وهي واجمة صامته . تبكي بحرقة ، لم تكن وقتها تشعر بحقد ما ، لم يكن يستحق الحقد هذا المخلوق الذي اعلن الامر في خبث الثعبان وهدوئه .
لو انه علم اية فظاعة نطق بها ، اذن لخفف عنها ذلك قليلا ، ولكن امام هذا الصمت العميق ، ومحاولة استئناف حياتهاالاولى في دؤوب النملة متناسياً تلك الهوة الشائكة ... فأمر كان يحيل انفاسها الى مثل حرارة جهنم .
انه رجل ككل الرجال ، ليست تستطيع ابداً ان تجد فيـه عيباً ، بل بالعكس كان ( احسن ما يمكن الحصول عليه ) كما قالت

امها ذات يوم ، لقد كان هادئاً حقاً ولكنها كتبت في مذكراتها في الايام الاولى ( انه يحبني حباً لا شك فيه ولكنـــه يتحكم في عواطفه بسهولة) ولكنه،مع ذلك ، مجرد دمية تسيرها غرائز دائبه.

بعد تلك الليلة احست فجأة بالبرودة ، واخذت تشعر ان هذا الشيء الحار المتمدد هناك ينفخ في وجهها وهو يضمر رجليه كما تنام صغار القطط ، والذي يعلو تنفسه الحيواني الرتيب ... قـد خرج من حياتها ، تاركاً فيها نفايات لزجة قذرة كانت ابداً تتعذب بها .

لقد حاول كثيراً ان يعود الى سابق عهده ، وكان يعرف انه يستطيع بكل سهولة ان ينال ما يريد ، ولكنــه كان دائماً ذلك اللغز الصامت ، لقد حـاول مرة ، ولكن البرود الذي قابلته به كاد يقتله .

كان يمكن ان تكون مجرد الرعشه الجسدية بين شابين مشتعلين ، صلة حيوانية قوية ولكنها كانت عذاباً من جانب واحد ... فلم يكرر المحاولة وهي تعترف انها لم تفهم هذه الخطوة منه مطلقاً ، ترى هل شعر بمقدار الهوة ؟ لماذا فعل ذلك ؟ لقد كان يستطيع ان يفعل ما يريد ، وهي تحس انه يتعذب ، وان صمته يخفي اشيـاء كانت تلامسها ملامسة خفيفة .

نفس الغرفة ، والفراش ، وكانت مرحة تهتف وتضحك وتتكلم لقد قالت اشياء كثيرة ، وكان وجهها يبدو سعيدا على الضوء الصغير الاحمر المثبت فوق سريرها . لقد تحدثت عن الحياة طويلًا ، وعن اطفالها المنتظرين ، وعن ، وعن زيارة لبنان ، وعن اشياء كثيرة .. وكان صامتاً على غير عادته ، وكان لضحكته نفسها لون التفكير

العميق .. وفجأة انبعث صوته هادئاً فيه بحة خفيفة .

يا عزيزتي ... هل تهتمين حقاً بالاولاد ؟

فضحكت ، ضحكت طويلاً ... بالطبع يا عزيزي ، سوف نلبسه الحرير ، ونعلمه وسيكون جميلاً له لون عيوني، وله رزانتك ولطفك ، ما بك صامتاً ؟ لقد قلت شيئاً سخيفاً . انك تمزح دون شك.

لدينا وقت طويل .. نفكر فيه بانفسنا قبل التفكير بالاولاد.

وتابع ، وقد خيل اليهـــا ان وجهه يبدو شاحباً من خلال الضوء الاحمر .

قد يأتون ... وقد لا يأتون ...

هل هو مجنون ؟ لقد قال لهـا الدكتور شوكت اليوم ، ان سبب هذا التعب العميق الذي تحسه قد يكون اولى علامات الحمل، وعندما خرجت مع زوجها كان صامتاً في الطريق فسألته :

ماجد .. ماذا قال لك الدكتور في هذه الفترة الطويلة التي اختليتما بها ؟

فشحب وجهه وقال بشيء من القوة

لا شيء ذا اهمية ... لا شيء مطلقاً .. لقد كان يوصيني بزيادة الاعتناء بك .

والتفتت اليه ، والسرير يئن تحتها ، والضوء الاحمر يرسل نوره الباهت ، وهي تجاهد لتنظر الى وجهه بامعان .

ماذا تقول يا ماجد ؟ انك تحيرني ، الطفل هنا في قلبي ... اني احس به يتحرك .

يا حبيبتي العزيزة ، يا صديقتي ... لن ترى الاولاد مطلقاً ..
انك تقول شيئاً مخيفاً ... انك تقتلني .
فاستدار اليها ولمحت الدموع في عينيه فجاهدت حتى لا تصرخ :
هل تعني .. ان الطبيب ...
لا امل يا حبيبتي فقد حرمنا من الاولاد ...
وتوقف قلبها عن الخفقان وصمتت طويلاً وسمعته يقول لا ضرر
من ذلك كبير ... على كل حال نرتاح من الواع والويع والمرض
والهم .. سنعيش لبعضنا ، نحن سعداء ، اليس كذلك فما حاجتنا
الى الاولاد ؟
وامسك كتفيها وضمها الى صدره .
لم نخسر شيئاً كبيراً . لم نخسر شيئاً .
وراعه صمتها ، فتحسس وجهها بيديه ، لقد كان بارداً
برود الموت .
سنقوم في العطلة القادمة للجريدة بالرحلة المنتظرة الى لبنان
وسنسعد ونلهو جيداً . ووصل اليه صوتها كأنما اضعفته المسافات
ماجد
نعم يا حبيبتي .
وانقطع صوت نافورة الجامع القريب وساد سكون مربك .
عدم مجيء الاولاد ... مني ... ام منك .
وسمعت شهقته واضحة ، وادار وجهه للجهة المقابلة وهل يهمك
هذا كثيراً ... النتيجة واحدة على كل حال .
اخبرني يا ماجد ، ان لم اعلم فسأموت ... مني ؟

وانقطعت انفاسها بانتظار النتيجة ومضت مدة طويلة .. طويلة جداً حتى تسرب صوته هادئا .

مني يا عزيزتي .. ولكني يجب ان نـــأمل فالطب يتقدم ، سأعرض نفسي على غيره من الاطباء .. سأدخل الجامعة الاميركية في بيروت وساد السكون من جديد ، وامتد طويلا ، وسمعت انفاسه تتردد ببطء ، فاخذت تتأمل وجهه على الضوء الاحمر الباهت . هذا الفم الملم الصغير ، وهذا الانف الذي يبرز بعض الشيء وهذا الشعر اللامع المصقول .. لقد احست في تلك اللحظة ..

وامتدت يدها بصلابة واطفأت الضوء الاحمر الباهت الذي ظل يتألق منذ تمددت لأول مرة الى جانبه في الفراش .

٣

سنوات خمس ، قطعتها في هذه الغرفة تنتظر ... اي حدث جديد ، اي معجزة ، أي حجر يلقى في البركة الراكدة الآسنة ، ولكن البعوض يفرخ ، ورائحة الطحالب تخنق انفاسها . لم يطرأ شيء جديد سوى ذلك الصمت العميق الذي التزمه كلاهما حيال الآخر ، صمت فيه لامبالاة وحبه جلاد ، وهي تتذكر بعد تلك الليلة حديثاً مهما تبادلاه ، بل كانت الاحاديث تسير حول توافه الحياة ، وكانت تمتد لحظـــات من الصمت ، كان كل منهما يشعر خلالها بالآخر شعوراً حاراً ، وكان يقطع الصمت سائلًا اياها بحذر فيما تفكر فتجيبه دائماً : وانت بماذا تفكر ، فاذا بوغت واجابها: لا افكر بشيء ، اسرعت تقول : وانا يا زوجتي العزيز لا افكر بشيء .

حتى الضوء الاحمر الذي اضأته تلك الليلة ، اصبح جامداً لا يوسل النور وعندما سألها في الليلة الثانية عن سبب اطفائه ، احتجت بأنه يضايقها ، ولتعترف انه لم يحاول مدة ان يتثبت بشيء لاتريده بل كان ينظر الى وجهها بامعان ثم يدير وجهه .. ويصمت .

لو تستطيع ان تصل الى اعماق هذه العلبة الغريبة التي يسميها دماغه ، ان سلوكه يحيرها ، فهو ابداً دائم التهذيب والحذر ، حتى في ثوراتها لاشياء تافهة ، كان يقابلها بصمت ، فيمضي في تصفح جريدته ، او يحاول ان يمسح نظارته برباط عنقه ( فما عني يوماً ان يمسحها بمنديله ) وعندما تبلغ ثورتها اقصاها وتنسبها دائماً بأن تكسر ما يقع تحت يديها من اوان ، كان يفعل اذ ذاك شيئاً : يصرخ للخادمة ، ويأمرها برفق رفع الحطام ، ثم يوصيها بأن تتذكره بأن يشتري آنية جديدة .

ترى هل يفهمها ؟ هل يشعر بحقدها عليه و كرهها اياه ، يخيل اليها بعض الاحيان انه لا يشعر بوجودها ، وان تهذيبه المفرط في محادثتها يخفي في حناياه احتقاراً لا حد له ، لو انه يغضب ، وانه يتحمس لشيء ، هذا البرود المترفع يكاد يقتلها ، وعندما تقترح شيئاً تعرف يقيناً انه يضايقه ، كانت تتأمل وجهه وتترقب ان ترى انطباعاً انسانياً على الوجه البارد ، ولكنه كان يقول بسرعة .

كما تريدين يا زوجتي العزيزة .

كانت تقضي الوقت طول النهار بالزيارات ، او باصدار اوامر سريعة الى الخادمة التي لا ينقطع صراخ طفلها ، او الدورات في اروقة البيت الكبير ، ترتب بعض الاواني والتحف بأن ترفعها ثم

تعيدها الى موضعها ، وكانت تعتكف في غرفتها ساعات كاملة ، ثم تخرج منفوشة الشعر ، مسهدة العينين ، فتزجر الخادمة ، وتأمرها ان تسكت ولدها ... حتى ان الخادمة ذات يوم قالت لزوجها وهي تتلفت قلقة نحو الرواق ، بأنها لا تعرف لماذا تلح سيدتها بالاحتفاظ بها ما دامت تكرهها .. ثم اختفت بسرعة عندما سمعت وقع قدم خفيفة على الحصباء الغناء . وكانت يقيناً تكره الخادمة ،تكرهها وهي ترفع وجهها الساذج المدور كله اليها وتحدق فيها دون ان يطرف لها جفن وتقول بصوت مبحوح .

هل تريد سيدتي شيئاً ؟ ..

كانت تشعر انها تخافها ، وان لها سطوة خاصة ، وكانت تكره مشاهدتها وهي تدني ثديها البشع ، الى هذا الولد العادي دائماً ، والذي تتدلى خرقه القذرة على جسده الاسمر ، ولكنها ذات يوم ،والخادمة غائبة تشتري شيئاً ، سمعت بكاءه ، فحملته بين ذراعيها ، وكانت الرائحة التي تنبعث منه تثيرها ، وحدقت فيه فابتسم لها ، ولطى في حضنها وقد انطبقت عيناه ، وكانت تتحرك برفق حتى لا توقظه وهي تحس بلمس لحمه اللزج على ساعديها ،وتروح تتأمله وهو يتنفس بهدوء ، فتغمض عينيها وتضع شفتيها على خده وتحس المذاق المالح وهي تقبله طعماً لذيذاً ... حتى اذا ما فاجأتها الخادمة ، التي ارتفع حاجباها الداكنان الملتصقان ، واتسع فمها الكبير ... اسرعت بأن اعطتها اياه واختفت بسرعة في منعرج الفناء ، دون ان تترك الخادمة تلحظ ان في عينيها دموعاً حقيقية .

لقد كانت هذه الخادمة مصدر شقاء لها ، ولكنها مع ذلك كانت

لا تريد طردها . وهي – الى الان – تأسف بتلك الغضبة الطارئة التي نقدتها اياها ... وكانت تقول : ان حركاتها أصبحت ثقيلة كسكار الدببة ... ثم تلتفت صوب الغرفة التي كانت تجلس فيها الخادمة ، وتقول لزوجها وهي تنظر الى البرك الصغيره التي تركها المطر .. والى السماء المغبرة المنعكسة فيها :

انها تأكل كثيراً ولا تشتغل ، هل قدر علينا ان نطعم الناس؟

حتى كان ذلك اليوم الذي فاجأتها فيه جالسة مستريحة فأمرتها ان تسارع الى مسح الصالة ناعتة اياها كالعادة بالكسل ، وفوجئت حينما نهضت الخادمة بجهد وهي تقول باستحياء :

يا سيدتي ... انني ... حبلى ...

والخادمة الى الان تروي قصتها الى امها وزوجها وجارتها ، ولا تستطيع ان تعلل كيف انقلب وجه سيدتها ، فتخدر وابيض وكيف اذهلت اولاً دقيقة ، ثم اندفعت في غضبة كان عنفها يزيدها قوة ثم اشارت الى الباب وتركتها وهي تشهق من الدهشة والالم .

وبانصراف الخادمة لم يبق لها شيء في البيت يثير انتباهها ... سوى زوجهـــا الذي يذهب الى عمله الصحفي صباحاً ثم يأتي في الواحدة كالمعتاد فيأكل ويتمدد ساعتين ، ثم يقوم الى عمله في تكاسل وكانت تعرف من الاخبار التي تقرأها في الصحف الكثيره ، التي كانت ترد الى البيت ... ان لزوجها مكانة كبيرة ، وان صحيفته مضرب المثل ، في القوة والجراة والفهم العميق لمشاكل السياسة ، وكانت تأبى ان تدع مثل هذا المجد البعيد يمسها ... كان اشعاعه بارداً كاشعاع القمر وزوجها بالذات لم يحاول يوما بعد تلك الليلة

ان يحدثها عن نفسه شيئاً ... ما فائدة كل هذا المجد وهـــذه الشهرة ، اذا كان لا يستطيع ان يعطيها هذا الشيء الصغير ذا الرائحة المثيرة .

حتى انها ذات ليلة هادئةمقمرة ، كانت وحيدة تقف على النافذة المطلة على الشارع ، تتأمل اشجـار الكينا الضخمة ، وهي تنافس اشجار الزنزلخت الناعمة ، التي هدلت اوراقها في بؤس القمر يتخللها ويمسح اعليها ، وثمة ضحكة عالية لفتـــاة بعيدة ، وسعلة رجل في الجوار . وكانت تنظر الى البيوت المتراصة التي يقع عليها نظرها ، وتعد بملل النوافذ المضيئة التي تتناثر على واجهات العمارات المتواضعة وكانت تلهو بأن تلاحظ الاضواء التي تطفأ . ثم اخذت تحدس ما يجري في هذه الغرفة المطفأة التي يلمسها القمر بشعاعه البليد. وظهر على فكها ارتخاء آلي وسرحت عيناها في الافق...وكانت تتساءل: أيكون القمر هو الذي يعطي للكون مثل هذا السكون ... فبالرغم من عواء الكلاب من بعيـــد ، كانت تحي بعمق الصمت المخيم..وفكرت بيأس ، فأنها وحيدة في مثل هذه الليلة المثيرة ، وان مثل هذه الليالي قد وجدت لتعذيب من عليهم بـأن يظلوا وحيدين ... ونظرت من جديد الى النوافذ المطفأة ، كم من اجساد تتلاصق في هذه العتمة ، واذرع تشد على صدور ، وافواه تزجو في صوت يقطعه تراخي النوم ، طفلًا يبكي في زاوية الغرفة ... ولن يستطيع احد ان يعرف في هذه المرأة الواقفة على النافذة ، والساكنة سكون اشجار الزنزلخت ، ان قلبها هنا يدق برتابة ، مؤديا ضريبة الحياة .

كان في عينيها دمعة جلية ، لا تنبع من احساس باطني ، وكانت لا مبالاة الجو حولها تسلمها الى نوع من الحذر ... وكان رجل يمر تحت انوار الطريق ، يتبعه ظلان اسودان ، وثمة صدى شاحب لأغنية شاعت اخيراً في الشمال ، وبكاء طفل من بيت قريب . وصعدت رغبة ماسة على اهدابها ، حتى لقد فكرت بدون ان تشعر بذلك السر الذي يلهب الوجه ، وبدون ان تفكر في المستقبل أن تنفخ هذا البطن الضامر من اي رجل .

هل تستطيع ان تجد ذلك الرجل الحقيقي... الرجل الذي يدفع في جسدها الا يخرج بذلك عن ضمته المعهود فيثور ويصخب ؟ .. انها لتتمنى ان ترى هذا الوجه المدور الشاحب ، وهو ينقص من الغضب ... تتمنى ان ترى الدماء فيه ساخنة حارة ، لا زرقاء شاحبة .. ولكن هل يثور حقاً وما هو مدى مكانتها عنده ... هل يشعر بوجودها قبله خيانتها ، على انها لا تستطيع ان تقول انه لا يشعر بها .. ولن تستطيع ابداً ان تبعد عن ذهنها تلك الليلة التي تكاد تصرخ كلما تذكرتها ، والتي خرج بها عن حديثه المعهود ، وهي تعترف انها - على الاقل - قد شعرت بالشفقة عليه تلك الليلة ببعض الارتياح .

كان جالساً في غرفته يقرأ او ربما كان نائماً كعادته في مثل تلك الساعة ، عندما جاءت امها ... وجلستا تتحدثان معاً في الفناء والشمس الغاربة تزحف على الحيطان في تشبث ، وزئيط السنونو يملأ السماء ونسمات حارة شرقية تضرب وجهيهما المتلاصقين .. وكانتا تتمتعان وتهزان رأسيهما وكان الرأس الشائب ، مرتفع دائماً معارضاً .

اما هي فقد كانت تنظر الى غرفته في حقد وتحدث امها ... وكان وجه امها يكتنز، ويتجعد ، ويشعب ، كقطعة مهترئة من الخيش وكانت تقول بحزم وهي تفرك يديها ..

سأتخلص سريعاً .. يجب وضع حد .. كلمة انت ..

وكانت امها تغمغم بكلمات غير مفهومة تدل على السخط ..

لا أستطيع ان اصبر بعد الآن يوماً واحداً . .

وماذا نفعل يا ابنتي ؟ . هذا حكم الله ..

لا اعترف بحكم احد.. استطيع ان اغيره ..اريد ان اتحرر .

وامها تغمغم من جديد في سخط ، وهي تعلن في تصميم .

الى متى صوتك يا ابنتي.

يجب ان تفعلي شيئاً .. اطلبي منه ان يطلقني

وهى تذكر وجه امها وهو يمتقع ، وتذكر تلك اللحظة التي التفتت فيها فجأة نحو الممر ، فرأت شبحاً منتصباً في النافذة اخذ يبتعد ببطء ، ثم راته وهو يمر امامها فيحيي امها باضطراب ، ثم يعتذر ببعض الاعمال ويتركها بعد ان يغلق الباب بصوت لا يكاد يسمع .

وفي المساء بدأ متعباً صامتا لم يتعش بحجة عدم الشهية .. وتمدد باكراً ، وكانت تلاحظه كما تلاحظ صيوانا اعد للتجربة ،وتتعرف في هذا الكائن الذي تكاد تسمع رجيب قلبه ، والذي كان يقطع السكون بسعال متقطع .. صورة زوجها البارد المترفع .

وسمعت صوته أخيراً ، لم يكن هادئاً ، واثقاً من نفسه كما كان من قبل .. بل كانت فيه بحة خفيفة ورجفة طبيعية :

أريد ان احدثك بأمر ..

وحبست انفاسها حتى لا تشعر بشيء ، وانتظرت ، وهي تكاد تصرخ لكنه لم يقل شيئاً آخر بل صمت طويلا ، وقيل اليها انه يعاني ازمة صعبة .. وكانت انفاسه متقطعة مجهدة ثم قال أخيراً وهو يمسح جبينه الملتهب :

اني ... انت ... لا فائدة .

ثم اعاد وهو يدير ظهره ويزفر .

لا فائدة مطلقاً ..

وبذلت جهداً كبيراً حتى لا تطلب منه ان يقول ما يريد ، وروضت نفسها على عدم الاجابة ، وان ظلت ، الليلة ، ساهرة حتى الصباح .

ينفخ ومنذ تلك الليلة كانت ثلاث دقات تحدد موعد مجيئه فيتمدد الى كثور مجهد تفوح مع سعلاته رائحة العرق .

## ٣

اخذت ترقبه وهو يدلف بهدوء ، فيخلع معطفه الرمادي الثقيل ثم يتمدد على كرسي الرواق متعباً ... واخذت تتأمل بخجل .. الشعيرات البيض التي كانت تنتشر بين شعره الغزير الذي كان يسرحه بعناية ، ثم تشاغلت بتقليب مفتاح صغير ، بينما كان هو يمسح نظارتيه .

لا تستطيع الان ان تقول له كل شيء ... يا لعذابه الطويل المخفى ولكنها اخذت تطرد هذه الفكرة من دماغها بقوة :

لقد صنعت لك اليوم عشاء شهياً ..

وراقها ان يرفع بصره في دهشة اخذ يحاول اخفاءها

آه

عشاء شهي من الالوان التي تحبها

آه

سرها ان يرتبك امامها لتخفي هي هذه الانفعالات التي تعصف بها كان يخفي وجهه وراء صحيفة وكـــانت لا تتحرك . قرأت مقالتك الاخيرة ..

لقد اهتز حقاً .. ارتجفت الصحيفة في يده ، ثم ظهر وجهه الحبيب من ورائها ، ففرحت لانتصارها ، ولم يستطع هذه المرة ان يخفي دهشته ، وشعرت به وهو ينظر اليها في قلق ، مـاذا تبيت له من مترية جديدة .. آه يا زوجي العزيز ... يا مسكين

هل قرأتها حقاً ؟

لقد استعاد نفسه بسرعة ... لذا يريد ان يسخر منها ؟.. لو يعلم انها تتألم ..لو يعلم انها تريد انتقول له اشياء بسيطة كثيرة .. يجب ان تسير الامور بشكل حلو ... يجب ان يعلم انهاصادقة . ولكن ما الفائدة ؟..

ماجد ... هل تذكر الاجازة التي وعدتني بها ؟... يجب ان نستغلها ..

لماذا يفعل ذلك .. انه اذا استمر في التحديق في وجهها بهذا الشكل فسيجعلها تجن ولا ريب ، لشد ما تغير هذا الوجه ، منذ خمس سنوات كان لطيفا ، وهو الآن قاس دهش ... لقد اثارته حقاً ، انه يرتجف ويمسح النظارة ناسيا انـه نظفها قبل دقيقتين ..

ويسعل في خفوت ، وخيل اليها ان شرايينها تتسع في جسمها وهي تقول في عنف مكبوت :

لنذهب من هنا ، لنذهب الى لبنان .

يجب ان يلاقي سلاحه ، ان يخلع عن وجهه هذا القناع لماذا يدهش ؟ لماذا يقلق ، يجب ان يفهم سريعاً ، يجب ان تعود الامور الى شكلها الاول ... ولكن خمس سنوات ... من العذاب... دهر طويل ... الا تسمعني ؟..

قالتها في شبه صيحة ، فرمى الجريدة جانباً وقال بتلعثم :

ولكنك قد لا تعلمين يا عزيزتي ان العمل ..

ما اكثر بلاهة هذا الرد .. لماذا لا يريد ان يفهم ، وان يحس ؟.

حتى كان يفكر بالعمل ؟. يا زوجي المسكين .. يا انبل الرجال دونك من العمل ، يجب ان تستريح ، انت مرهق ... تعمل دائماً دون اجازة .

هل سافرت امك ؟. اذا كنت تريدين فسافري : يا للمسكين من حقه ان يقول كذلك . انه يظن انني اسافر من اجل امي .. يظن انني اطلب الهرب منه .

دعك من امي .. سنذهب معاً .. وحدنا فقط ..

حك انفه بقلق ، وبدأ يزرع الرواقي بخطواته ، كان حذاؤه المغبر ، يطرق الرخام بضربات مهموسه .. انه يدرك ان شيئاً جديداً يحدث .. شيئاً غامضاً .. حجرا في المستنقع الآسن .

كانت ترتجف ، وتتخيل لها كل انتصاراتها السابقة اوهاماً جوفاء تافهة ، وكانت تحاول ان تتذكر نفسها ، ولكن محاولتها فشلت ..

لقد احست انها ضائعة ، وبأن دواراً اخذ يتسرب اليها .. يجب ان لا تفقد كل شيء .. يجب ان تقاوم .. انها تستطيع .. ولكن خطواته لا تنقطع .. ان من هذا الدوار والضعف العام الذي اخذ يسري في دمها . مقاومة اخرى والا تهاوت امامه .

قل شيئاً .

وشعرت ان عروقها تتسع ، والم الدوار قد فارقها فجأة لماذا تصرخين هكذا ؟ مابك اليوم؟. ما بها اليوم؟ يا زوجي المسكين . كيف اقول لك ، كيف اخبرك ؟ قيل اليها انها ستقوم بحركة طائشة ، بأن تندفع وترمي بنفسها بين ذراعيه ، وتبكي بحرقة .. تبكي طويلًا ، وتقول له اشياء كثيرة ، مثيرة ، مخجلة ولكن يجب ان يبادر هو بعمل شيء . حتى لا يقتلها الدوار .

كان قد اقترب منها قليلا ، وهو يفكر في اشياء كثيرة وكان يقول :

انك تتألمين يا عزيزتي ... وجهك مصفر .. هل هو الدوار ؟ انتظري لاحضر لك شيئاً .

شكراً .. لا اريد شيئاً.

وخيل اليها انها في عالم آخر منفصل عنها وقالت بجرأة :

تعال واجلس هنا .. بجانبي

لاحظت تردده ولكنه جر كرسيه وجلس بجانبها وهو يقول بقلق يا سعاد ... قولي هل انت بخير ؟ لم تسمع منه منذ زمن طويل ، هذه اللهفة العميقة ، .. لقد كنت عمياء .. كنت عمياء

يا ماجـــد

نعــــم

وسكتت فقال لها برفق .. انك تتعذبين قولي كل شيء .

يا ماجـــد

نعـــم .. نعـــم

ايقنت الآن انها على شفا الهاوية ، ويجب ان تقفز مهما كان الامر .. لقد ارهقت اعصابها ، وتراخت عـــلى المقعد ، وقالت باستسلام كاد يبلغ حد الخمول :

لقد قال لي الدكتور شوكت ... كل شيء

آه

قالها بعمق ثم تهاوى على الكرسي دفعة واحدة ، بينما اخذت هي فجأة في بكاء عنيف ، خيل اليها انها تعوض كثيراً عن هـذه الايام الطويلة التي قاستها ، تصورت كل حادثة في سرعة مذهلة ، واخذت تبكي وتبكي .. وفكرت بأن في العـــالم اشياء جميلة ، وكثيرة ، وان البكاء لذيذ وجميل .. وكان جسدها يهتز بعصبية ، فأحست بيده تضغط كتفها مهدئة ، فازدادت في البكاء ، وعندما رفعت رأسها اخيراً اليه رات عينيه ممتلئتين بالدموع .

لماذا لم تقل لي كل شيء .. لماذا

وازداد ضغط يده على كتفها فألقت بنفسها على صدره وشدت بدفء مريح .

كلما فكرت .. أكاد اجن . يا الهي كم كنا نتعذب

لا تبكي . يا عزيزتي . الامر لا يستحق كل هذا الانفعال .

ان النبل اذا بلغ هذا الحد ..يكون مخيفاً .كان باستطاعتك.

ضمها بعنف ، ولكنها قالت بتصميم الاطفال شيء جميل يا ماجد ، شيء معبود ، يجب ان تتزوج ثانية كان يجب ان تفعل ذلك منذ..

اسكتي يا سعاد .. انك تعذبينني

ما نفعي انا ؟ جثة .. رمة بالية . عاقر يحسن ان تجلس في البيت وترقع الجوارب .. يجب ان تتزوج هل تسمع ؟ ان تنجب اطفالاً سارضى . بل سأفرح . وسأعوضك عن كل هذه الايام الطويلة من العذاب .

هل انت واثقة ؟

رفعت راسها حينما سمعت صوته .. لقد جمد فجأة .. واخذت تتلمس في صفحة وجهه ما يعتمل في اعماقه ، وتداوت في فاكرتها آلاف الصور ، سريعة بائسة . وخيل اليها انها تفقد من نفسها شيئاً ما .

يا ماجد ... ماذا تعني ؟

ولكن وجهه اكتسى طابعه المألوف ، بل احست انه يريد ان يبتسم فلملمت نفسها الضائعة ، وفكرت في ان تنتصر عليه ولكنها شعرت بالضعف .. كانت دائما تحس ان شيئا ما ينقصها . كانت تعبة وفكرت بمعجزة ترد كل شيء الى مألوف عادته .. بعد ان تعقد كل هذا التعقد الغريب .

يا ماجد ... هل تغفر لي ؟

خيل اليها ان جملتها سخيفة ، وان الامر من التعقيد بحيث يجعل مثل هذه الكلمة تبدو عامية مبتذلة ، وشعرت بأنه يحدق فيها لعله يتنسم طابع الانانية في هذا الوجه الكنود

ولماذا الغفران ... اني لا افهمك ؟

حقاً انها تسرعت ... هكذا بجلسة واحدة تظن انها تصلح كل شيء .. واحست انه يشعر بالحقد ... يجب ان يفهم انها متعبة لا تستطع مقاومة وجهه الصارم ... يجب ان ينظر الى وجهها طويلاً ثم يبتسم .. واشتد الطنين في اذنيها .. ونظرت الى عينيه ، وآلمها هـــذا الرهق ، لا بأس ليستمتع بابصاره فستعود الامور غداً الى حالتها الطبيعية ... لا انها لا تحب ان ينظر اليها هكذا ... لا .. وانطفأت الثريا الكبيرة ، وشعرت بالراحة .

عندما أفاقت كان الصمت يكاد يلمس ، فمسحت العرق عن جبينها ثم مدت يدها واشعلت الضوء الاحمر الذي علاه الغبار ، ثم نظرت الى مكانه الفارغ والى ساعتها وتنهدت ... هناك خمس ساعات طويلة حتى تدق ساعة الحجاز ثلاث دقات .

# الساقان السوداوان

لم يعد يشعر بان السجادة جديدة ثمينة ، وان الصور التي كانت معلقة على الحائط توحي اليه بشيء جديد ، وفقد احساسه بانه يجلس على اريكة وثيرة وقد مدد ساقيه على طولهما ، فتنهد ونظر الى قنينة الويسكي « الجون هيك » التي تبدو كسيدة عجوز تحاول ان تحتفظ بكبريائها وفي كل لحظة يفيض منها ماء الحياة ... ثم قال وهو يرتعش : — غالا !!

— نعم يا حبيبي !!. — اني سعيد .

وتضحك غالا الحسناء ويذكره ضحكها بصوت الحصى الرقيق وهو يلقى في الماء ، وشعر كأنه يختنق ، ففك رباط عنقه ، وارسل ياقة قميصه ، واحس كأن شيئاً ينقصه ، فتلفت حواليه ، واخذ يدغدغ ثدييه بيديه ثم يتحدث مع غالا ، والضوء قوي ، وصوت سيارة شحن ينفذ من شقوق النوافذ ، وشعوره بالضيق يزداد ، وغالا تبدو جميلة ، والصور على الحائط قد باتت مزعجة ، ولكن غالا تبدو جميلة ايضاً ،وهو يحبها ، وماذا يريد منها اكثر من ذلك انها لا تطلب منه مالا على فرط ما معه من مال ، وهي ترفض الا ان تدفع حتى اجرة السينما !!. يا لجسمها البض ... ولكنها ناعمة جداً لدرجة البرودة ، لدرجة تجعله يحس بالامتلاء والرقابة ،

وهي تحدثه حديثاً قديماً ولكنه لذيذ جداً ، عن السهرات ، وعن حفلات الرقص ، وعن المتع التي لا تنتهي .. ولكن الضوء قوي ، واصوات مشاجرة تجري في الشارع ، وصفارة حارس الحي تدوي وقدماه تؤلمانه ، ولكن غالا تسعده ، لقد تمناها ، وها هو ذا قد حصل عليها ، لا شيء ينقصه في الحياة .. يردد هذه الجملة مراراً . لا شيء ينقصه .. هكذا تقول له امه ، وهكذا كان يقول له ابوه وهو يؤمن ان هذا شيء بديهي ، لا شيء ينقصه ، ويتنهد ويشرب كأساً .. الا ترين يا حبيبتي ان الضوء قوي ، وهذه الزجاجة انتهت ، والحر اصبح خانقاً ؟.. انت متعبة ، اتريدين الاستحمام؟ فليكن ، ساقرأ شيئاً حتى تنتهي ، نعم يا حبيبتي ، سانام هنا ، فيم تفكرين ؟ ساذهب لافتح نوافذ غرفة النوم .

وذهبت غالا ، فاسرع بفتح النافذة ، واستقبله نسيم بارد منعش ، وزعق قطار بعيد فنظر الى الشارع المقفر ، كم تنام هذه المدينة المزعجة باكراً ، ما احوجه الى ان يمشي ، ان يمشي طويلاً حتى الصباح ، حتى اللانهاية ، انه يستطيع ان يفعل اي شيء ، يستطيع ان يشتري هذا البناء الضخم الذي يشمخ امامه .

لا شيء ينقصك ، اخوانه في المدرسة كانوا يقولونها له ايضاً ، يقولونها ووجه ساخر هادىء معروق يرقبه من خلال الجماعة ويبصق على الارض ، واستنشق الهواء بعمق ، ستنتظره غالا ، انها نزهة صغيرة .

وهبط الى الشارع ، ورد على تحية الحارس ، واغمضت عينيه سيارة قادمة فتساءل عن مصير سيارته في شعبة التصليح ، ايستطيع

العامل ان يردها الى هيئتها الاولى بعد صدمتها التي نجا منها باعجوبة؟

وكانت ضربات حذائه اللامع على الارض فيها انسجام ورتابة، فتلفت حوله بحيرة، وتمنى ان يفعل اي شيء، ان يأتي باية حركة ماذا يصير في الدنيا ان طرق هذا الباب سائلا عن صديق له ذاكراً اسماً مزيفاً؟ او طرق هذا الباب الصغير حتى اذا خرج احدهم لم يشك فيه؟ وكيف يشك فيه وهو في مثل هذه الوجاهة؟.. لا شيء ينقصك !!.

تلفت حواليه، كل شيء يبدو بليداً حوله، حتى هو يحس بالخمول وتمنى ان يشهد اي شيء يسليه، مظاهرة في الشارع مثلا. فلماً سينمائيـاً، اقفلت دور السينما الان ونظر في ساعته، واسترعت انتباهه ضجة ضعيفة.. كيف كان يمر امام هذه الخمارة دائـاً ولا يدخلها؟ اليس مشهداً طريفاً ان يدخل؟

– عندك ويسكي؟

– وطني؟ – لا، جون هيك؟

– ما في – عندك كونياك؟

– وطني؟ لا، كيموس.

– ما في عندك..

فقال صاحب الخمارة بضيق وهو يحك انفه اللامع: عندي عرق ونبيت وويسكي وكونياك وطني والسلام.

– هات كأس كونياك – كاس الافندي يا جبران.

وحملق فيما حوله، وزجاجات النبيذ القديمة مصففة على الرف يعلوها غبار كثيف، وتبدو اعناقها كقمم عتيقة لبيوت كنائسية

شاهدها مرة في السينما ، وتلفت حوله وهو يقاوم التقزز الذي الم به من جرعة صغيرة ، اكوام من الرجال يدخنون ويشربون ويحكون معاً ، يتجمهرون حول طاولات مخلعة كانهم يمسكون بايديهم حطام سفينة غارقة ، وكان احدهم يحك راسه بكلتا يديه ويضرب الارض بقوة ، وعيناه اللتان غارتا في كتلة من لحم احمر مخربش تحاولان مقاومة النوم ، بينما كان آخر يسند رأسه الى الحائط الملوث بالدهن والمغطى باعلانات سينمائية قديمة ويدندن باغنية لم يسمعها من قبل .. وكانت الكلمات تصل اليه مختلطة متشابكة .

– كأسك اخي صلاح – صحة وعافية .

وكانت كلمات .. كوريا . الاستقلال ، مصر تأتي اليه مع الاغنية الجديدة .

– والله ، يشرب كأس اخي صلاح .. انت الكلام لك .. ابو اكرم .

– والله ما سمعت .. طيب مرة ثانية .

– كأسك اخي صلاح – صحة وعافية ..

وشرب الكأس الثالثة من الكونياك ثم خرج وهو يضرب بيده على بطنه ، واحس بحاجة الى القيء فقاوم . ترى لو جلس معهم الان ، اكانوا يعرفون انه غني وانه يستطيع ان يفرق عليهم المال الكثير ؟.. ويسرع الى الحائط ليقيء .. وظل متطاول يقف امامه .

– يا حضرة الاخ ، يا حضرة الاخ ، هل هناك مراحيض في

هذه الناحية ؟..

ويسير من جديد ، ترى هل انتهت غالا من الحمام ؟ ما اشد الحر في البيت الفخم ، لعنة الله على هذا الكونياك الرخيص .

وبدا له شبحان من بعيد يتقدمان نحوه ، احدهما شبح اسود، انها امرأة بدون شك ، وكان يسمع همسها من بعيد، والنظرات المتلصلصة التي تلقيها المرأة حولها كانت تسره وتبهجه ، وانقطع الهمس حين تقدم ، ولما جاوزها سمع الهمس يعود ويبتعد شيئاً فشيئاً ثم ينقطع .

ومن جديد سمع وراءه وقع خطوات ، فتلفت ليرى الشبح الاسود وحده يتقدم حتى يلاصقه ، فيتردد قليلاً ثم يبتعد وهو ينظر الى الخلف كلما مشى عـدة خطوات ووجد نفسه يهمس :

ــ سست ست .

فالتفتت المراة في الحال ثم تابعت سيرها .

فضحك بسخرية ثم اسرع حتى حاذاها فقالت بقسوة :

ــ ماذا تريد ؟ مشغولة ؟

ــ ومن تظني ؟ ــ هف .. العمى .. قولي مشغولة ؟

ــلا .. كم تدفع ؟

ــ كم دفع لك ذلك الذي كان معك ؟

ــ الوحش..تصور ليرة وربع من يظنني؟حمارة ،بقرة،كلبة؟.

ــ طيب لا تغضبي .. انا ادفع لك ليرة ونصف

ــ كم ؟ ليرة ونصف ؟

ونظرت الى هندامه باحتقار ثم قالت :

– الله يلعن هذه الليلة ، الله رماني بزبونات مثلكم .
– ولو ، طيب ليرتين ، لا تجادلي ان ادفع اكثر .
وضحك في سره ، كم ستنفرج شفتاه عن بسمة ساخرة عندما يخرج لها خمسين ليرة ويقول لها من طرف انفه . – معك فرط ؟
قال لها بهدوء وبصوت هامس – قولي عندك محل ؟
– لا ... عندك أنت ؟ – لا .
ففكرت قليلاً ثم نظرت اليه بتردد وقالت :
– في البناية المجاورة ، في الطابق الثاني يوجد بيت مهجور وامامه فسحة ، فاذا نزل احد من فوق او طلع احد من تحت سمعناه .
فقال وهو يكتم ضحكة عريضة ويفكر بفراش غالا الوثير :
– عظيم ، من اين اتيت بهذا المخبأ الفخم ؟
– اسرع ، لا تضيع الوقت .
ومشى معها كانه مسحور ، وانزاح ذلك العبء الذي كان يجثم على صدره ، وفكر بان العالم يبدو طريفاً في بعض الاحيان ، وفهم لماذا يبدو بعض الناس متحمسين ، انها مغامرة طريفة ، لا شيء ينقصك .. هل تظن هذه المرأة ، انها تسرع .. يا للمسكينة . وجاءه صوتها الحذر :
– هنا ، اصعد ، هناك حارس في هذه المنطقة .
وصعد بحركة آلية ووقف يتأملها وهي تخلع البرقع فكاد يقفز من الهلع ، رأى وجهاً مخيفاً اكله الجدري اكلا فكانه مساكن النمل او جحور الديدان ، وفي وسطه تقوم عينان قاسيتان القى عليهما ضوء الشارع الذي يدخل من نافذة الدرج خطوطا مفزعة .

قاوم القيء ورجعت اليه سخريته وراقبها وهي تخلع معطفها وتفرشه على الارض ، ثم تتمدد ، وسيقانها السود الهزيلة تلمع في الضوء الخفيف كأفاع متلوية. وهنا انفجرت من فمه ضحكة طويلة، قهقه بجنون وتشف ، وخيل اليه ان العالم مضحك لدرجة لا يكاد يتصورها العقل ، اخذ يضحك بعمق وقوة حتى اندفعت من عينيه الدموع ، ووضع يديه على بطنه وهو يتلوى كالمسعور .

ولكنه قطع ضحكه فجأة لان المرأة انتصبت امامه، وخيل اليه ان عينيها تضربانه بالسياط . — ما بك يا ابن الكلب ؟

فانتصبت اذناه كفرس جامح ، لم يتصور ان في العالم احداً يستطيع ان يهينه مثل هذه الاهانة ، فنظر اليهـــا كانه ينظر الى حيوان غريب ، وتابع ضحكه وهو يمد يده الى جيبه فينتر خمسين ليرة كاملة ويقول : — لا تغضبي ، خذي هذه الخمسين ليرة، اضحكي حتى ارى ، قلت اضحكي .

واخذ يقهقه بشدة ، وهو يتخيل ساقيها السوداوين الهزيلتين ، ووجهها المجدور المشوه ، وحركاتها الحذرة ، ومد يده والقى اليها بالورقة ، ثم استدار لينزل وهو يضحك ، ولكنه تسمر في وقفته كانما قد صعق، فقد فاجأه صوت هائل لم يسمع مثله في حياته :

— يا كلب يا جبان ، خذ هل تظن انني محتاجة لمالك ؟

الله يفضحك .. الله ينتقم منك ..

وشعر بيدها تلامس وجهه ملتهبة فتقذف بالورقة بين عينيه .

الله يفضحك .. الله ينتقم منك .

• • •

كان النسيم قد تحرك بعض الشيء ، وخطواته تتجه نحو البيت رتيبة ، منسجمة ، لا شيء ينقصك ، وارتجف بعنف وشعر بحاجة لان يبكي ، بحاجة لان يرى امه واباه واصدقاءه الكثر ، وخيل اليه ان الوجه المعروف القديم ، قد برز له من وراء عمود الشارع ، وشعر بالبرد رغم الهواء المعتدل ، انه خائف يطارده صوت ذئبي ينشج بعصبية من وراء البرقع ، هو بحاجة الى ان يصل سريعاً الى البيت وينام ليفيق باكراً ويستلم سيارته .

وفكر بان الدنيا مخيفة وانه صغير يحتاج الى ان يضيع بين المجموع فيتحرك دون ان يشعر به احد ، ويتنفس بحرية ، لا شيء ينقصك ، هه .. كم يتمنى ان ينام .

احس بالراحة حينما وجد الاضواء لا تزال منيرة في منزل غالا ، ولما وقفت امامه وقد اخفت شعرها الفاحم تحت منشفة صغيرة .. اندفع اليها يغرقها بالقبل ، ويضمها اليه بعنف غير مبال بدهشتها . ولما جلس اخيراً على المقعد متهالكاً واضعاً يديه في جيبيه تنفس بارتياح . ولكنه امتقع لونه حينما اصطدمت يده بشيء جاف اخذ يخش في جيبه ، فاخرج الخمسين ليرة ، واخذ ينظر اليها ثم التفت الى غالا وقال باستعطاف .

— خذي هذه ، واشتري بها شيئاً .

رفعت حاجبيها بدهشة وقالت بملل وغضب .

— عدنا الى هذا الحديث ؟ الم نتفق ..

فقال بعنف : — طيب ، طيب ، لا تأخذيها .

ثم قال كالحالم : — يا غالا .. على كل حال لست وحدك ..

التي لا تأخذين !!.

ونهض نحو النافذة واخذ يملأ رئتيــــه من النسيم المنعش وهو يراقب شبحاً يتقدم من بعيد ، حتى اذا صار تحت النافذة ، دس يده في جيبه بسرعة والقى بالورقة ، ثم اخذ ينظر اليها وهي تتأرجح حتى وقعت بين رجلي الصبي الذي انقض عليها ثم اخذ يجري ويجري كأنما تطارده الشياطين .

# ... وغاب القمر

بدا القمر شاحباً تحوطه هالة صفراء كامدة . وكانت العائلة جالسة على السطح وقد فرشت حصيراً قديماً واتكأ الاب على مخدة سريره بينما كان ابناء يتجاذبان مخدة عتيقة برز بطنها حتى بدت كخروف مسلوخ واخذت الام تتحدث مع زائرة لها ... وهناك في اقصى الزاوية حيث تتبدد خيوط الحصيرة وتتعامد كحديد السجون جلست الخادمة امينة وهي تنظر الى النجوم . . ووجهها الذي خربشه الزمن وجعده على صغر يبدو كلعبة الصغيرة فوزية . التي كانت تبكي لان اخاها ضربها بينما اخذت منور تهدي ثائرتها .

وتنهدت امينة للمرة العشرين وهي تسمع الحديث المعاد لسيدتها والزائرة واحست بضيق في نفسها ففكت ازرار ثوبها سمعت سيدتها تقول :

ـ بدون يمين ياام نذير اننا سعيدون جداً باختيار ابنتك لنصوح

ـ ونحن كذلك بدون يمين يا ام صباح والله الموفق .

وادارت امينة راسها ببطء ثم وضعت يدها على فمها وحاولت ان تتثاءب فلم تستطع وعادت تستمع الى الحديث ..

ـ ماذا ترين ان يكون قماش السرير ، اجاس يا اعين لا تقترب من المـــاء .

ـ هؤلاء الاولاد مزعجون .. نعم .. لون قماش السرير سماوي وسنكلفه عند النونو .

ـ متى نطبع التذاكر ؟

ـ بعد غد

ـ لماذا ؟ متى اتفقتم على اوان العرس ؟

ـ في اول الشهر

ـ هذا كثير فان نصوح يرى ان يكون في العشرين منه .

ـ لا نستطيع ان نكمل الجهاز قبل آخر الشهر .

وفكرت ام صباح قليلاً ثم التفتت الى ابي صباح الذي تهيأ لالقاء آرائه الناضجة فتنحنح وحرك رجله الممدودة ولكن ام صباح هزت كتفيها وقالت لام نذير :

ـ لا بأس فليكن .

وتدير امينة رأسها من جديد وتنظر الى القمر الشاحب الذي يميل ببطء نحو الغرب وراء الجبال ، هناك حيث تنام قريتها غافية تحت اقدام الجبل.

ترى ماذا يفعل ابوها الآن ؟ هل يجلس على المصطبة تحت الكرمه العجوز وقد مد رجليه في الساقية الصغيرة واخذ يحركهما رواحاً ومجيئاً وهو يأكل التفاح بينما تجلس امها تعجن العجين في المعجن الاسود؟.. ومدت عنقها نحو الغرب ورفعت انفها المنبطح وتشممت ، وخيل اليها انها تشم رائحة « الجلة » وهي تحترق في تنور عبود الاعرج .. ترى هل يفكر ابوها فيها الآن ؟ وامها لا تزال تلوك اسمها بحنان كما كانت من قبل ؟ . هل تخطر على بالها تلك الفتاة

الصغيرة الجميلة التي كانت موضع رعايتهم ومناط امالهم وكان ابوها يدق بيده القوية على كتفها وهو يحمل عنها اعواد الحطب :

قلت لك الف مرة يا عفريتة ان لا تحملي الحطب حتى لا توسخي يديك !!. الله يقطعك ماذا يفعل ابن شيخ البلد عندما يرى خطيبته على هـذه الحالة . سيقول ان الحاج مدور يشغل بنته كالحمير !! نطي الى البيت !

وتدوي ضحكته الخشنة في اثرها كأنها مطارق البنائين الذين ينصبون مأذنة جامع القرية ..فيحمر وجهها وتنفض يديها وتسرع وهي فرحة بالجزمة الجديدة الحمراء التي جلبها لها ابوها من الدنيـا والتي حلف ابوها بذقنه انه اشتراها بعشر ورقات بالتمام ما عـدا اجرة السيارة فتقفز بها كالعصفور وهو يلتقط الحب . . وتنطلق نحو البساتين وقـــد ضفرت شعرها فاصبح كسنابل قمح الوادي ويداعب الهواء تنورتها الفضفاضة فتستقبله بضحكة بريئة حتى تصل الى البستان .وتحس بالحر فتذهب الى الناعورة الدائرة وتخلع ثيابها الخارجية ثم تنظر حولها بذعر وحذر وقد احمر وجهها وجف ريقها وبسرعة فائقة تخلع ثيابها الداخلية ثم ترتمي على الحاووظ الذي يصل فيه الماء الى سرتها وتحرك بيديها ورجليها حتى تحس ان جسمها قـــد ابترد ..

وهي لا تنسى ذلك اليوم الذي ذهبت فيه الى الحاووظ وكان كل شيء ساكناً هادئاً فألقت ثيابها ثم نزلت في الماء تسبح فيـه كالضفدعة ووقفت قبلا تدلك جسمهـــا لتنظيفه واخذت تضرب الامواج الصغيرة التي تأتي اليها مسرعة ثم تضحك بعنف . . ولكنها

في ذلك اليوم احست شيئاً مختلفاً جثم على قلبها وشعرت كأن عينين ترقبانها فرفعت رأسها بسرعة فرأت ديـــاب ابن شيخ البلد واقفاً وراء الشجرة يراقبها فصرخت بذعر وغطست في الحاووظ الا رأسها ثم نظرت اليه بتوسل وقد كادت تموت ذعراً :

عيب يا دياب روح روح لاحسن ابوي يشوفنا يموتنا ومـــا يجوزنا شبله .

ويضحك دياب وهو ينظر اليها بسرور ثم يقبل ثيابها ويختفي.. فتظل في الماء ساعتين لا تستطيع الخروج خوفاً من ان يكون قد تربص بها ليراها وهي تلبس .

وتصحو امينة من المفاجأة وتلتفت حولها فلا ترى احداً مهتماً بها فالاب قد غط في نومه وسمع شخيره والام تتفرج على ابنتها منور وهي تلعب مع ام نذير بالبرزيز وتلتفت مطمئنة وتنظر الى القمر وقد كاد يغرب وتحس برغبة في البكاء فتتنفس ملء رئتيهـا وتتذكر عرس ابن سيدتها نصوح ويقفز فكرهـــا الى القرية من جديد .. ان شيخ البلد اتفق مع ابيها على الزواج وقد دفع مهرها غاليـــاً مئة مد قمح وخمس ابقار مع بيدر توم ومئتي ليرة ... وتجري الاستعدادات للزواج الكبير ويعزم شيخ البلد عشرين قريه مجاوره ويستحضر من الدنيا مولداً صغيراً للكهرباء فاذا ما جربه ورأت القرية الانوار الكهربائية ظنوا انهم في حلم واندفع كل منهم كالفراش نحو النور .

وقبل العرس باسبوع تطرأ اعراض المرض على أمينة فيترقب الجميع شفاءها بلهفة ولكن حالتها تسوء فيستقدمون اليها طبيباً من

القرية المجاورة فيعطيها لزقة من الخردل مع عشرين كـــأساً من الحجامة ونوعاً من الحشائش المغلية ولكن المرض يتحدى الطبيب المبارك ويستمر حتى تفيق امينة في يوم من الايام وتمر بيديها على وجهها فاذا به مليء بالمرتفعات والمنخفضات واخيراً يأتي طبيب من الدنيا على اثر دعوة من شيخ البلد ويقف اهل القرية امامه خاشعين! هو ذا شخص آت من بلد الترام الذي يرن والسيارة المسرعة كبساط الريح والطيارة كأنها الرخ الاسطوري فينحرون له الذبائـــح ويتسابقون في اكرامه ثم يعرضونها عليها فيكتسب وجهه نوعاً من الصرامة ثم يؤنبهم بعنف وهو يسبهم بسبات كانت لذيذة عليهم لانها جديدة ..

ولكن لغطهم ابتسر ثم ساد سكون قام عندما زجرهم مواطن الترام والسيارة ثم قال بصوت رهيب .

– انه جدري

وسادت الهمسات وتدانت رؤوس اهل القرية متسائلة . وتتسع احداقهم .. فيقول شيخ انه راى هذا المرض في احدى القرى وانه يجعل الشخص كسيحاً .. وقال آخر انه يجعله اعمى وقال ثالث انه مرض في المعدة لا يلبث ان يشفى بقليل من البابونج .. امـــا طبيب القرية المجاورة فقـــال وهو يرفع عقاله مفكراً هذا المرض يسمونه عندنا (الشنوره) وهو مرض فظيع اذ انه يترك الانسان مجنوناً . وقرب راسه من المجتمعين وقال بصوت خفيض : يقولون ان من يصاب به هو على اتصال مع الجان وخاصة ابن الملك الاحمر ساعد الله دياب فقال احد الشبان : ومن قـال لك انه سيتزوجها

لقد اسر لي البارحة انه ليس قرن التيس حتى يتزوج امرأة تزوجها المرض ...

اما طبيب الدنيا فقد طاب له المقام وهو يرى انه ينتقل من بيت الى آخر فتنحر له الذبائح ويسيل السمن حتى لتستطيع ان تغمر به اصابعك .

واخيراً سرت البشر بان امينة قد شفيت فيأتي اهل القرية يهنئوها بالسلامة وتكون هي جالسة على سرير مكون من مجموعة من السحاحير مد فوقها فراش .. فيرون اباها وهو يستقبلهم بصوت هامس فيه خشونة وقد اطرق وتغضن وجهه بينما كانت امها تضرب كفاً بكف وتحاول ان تمنع بكاءها. اما امينة فقد كانت لاتعرف من الامر شيئاً وفرحت ببكاء امها الذي يدل على السرور واصطف اهل القرية حول السرير واجمين فأخذت تتطلع اليهم والسعادة ملء قلبها وتحاول عبثاً ان ترى بينهم دياب ولكنها ذعرت عندما رات وجوههم الكامدة وسحنهم المجعدة ثم خرجوا وهم يغالبون دموعهم وظنت امينة ان حبيبها قد وقع له شيء فسألت امها فطمأنتها بكلمات موجزة فجلست امينة في حيرة ثم نهضت من السرير رغم احتجاج امها وارادت ان تمشط شعرها فدنت من المرآة وهي تلاحظ ذعر امها وابيها فلما وقفت عليها نظرت الى وجهها طويلاً ثم صرخت صرخة عظمى وسقطت مغمى عليها .

وبعد ذلك .. وبعد ذلك تزوج دياب من غيرها ، برم بها ابوها وامها لانها لا تخرج من البيت ، نزل ابوها الى الدنيا ثم عاد برجل اشيب اوقفها امامه ثم قال له هذه ابنتي ياسيدي وديعة بين يديك

فاحفظها فهز الاشيب راسه في الم فسمعت صوت ابيها يقول تجهزي يا ابنتي فلسوف تعيشين في الدنيا تخـدمين السادة فكوني امينة كاسمك والله معك وتخرج امينة من القرية مع السيد الاشيب وتنظر الى الحجارة والارض والسماء وتترقرق في عينيها دمعة ثم تدير راسها وتمشي وتمشي الى الامام .

هل مات ابوها ؟ لم تستطع ابداً ان تتصوره ميتاً وهو الذي كان ممتلئاً حياة وقوة ولكنها احست ان صلتها بـه قد بعدت .. جداً فقد كان ذلك منذ عشرين عاماً . عشرون عاماً طويلاً الفت امينة فيها الدنيا ورات ابناء السادة المترفين وهم يتهادون على ارض صلبة لا غبار عليها . وتعلمت فيها ان تقول نعم دائماً حتى لسيدتها منور بنت سيدتها الكبيرة العانس التي لم تتزوج بعد والقبيحة التي تكرهها امينة كما لا تكره انسانا من قبل !! هذه الفتاة بماذا تفضلها؟! انها قبيحة وعانس فلماذا الغطرسة والكبر ؟ .

وهي قد شهدت اولاد سيدتها يتزوجون واحداً بعد الآخر . ولكنها احست الآن بعرس نصوح شيئاً مخالفاً . لم تشعر بذلك الفرح الغامر الذي كان يتجلى في قسماتها كلما تزوج احد سادتها . ولكن نصوح هذا . انها ربته على يديهـا وشهدت زحفه الارعن ومشيته الضعيفة وغذته بحنانهـــا حتى شب وكبر واصبح في سن الزواج . وكان يجب ان تفرح لفرحه وان تتفانى في خدمته كما هو مأمول منها. ولكنها وجدت نفسها ضيقة بالحياة تبكي لاية اشارة وتنفعل لاقل كلمة حتى ظنوها مريضة. وكانت هي نفسها لا تدري مصدر حزنها وتلوم نفسها على عدم اندماجها في الوسط السعيد الذي

يغمرها فكأنها جالسة في الماء في آنية من زجاج وحاولت ان تبتسم فلم تستطع وثقلت حركاتها واعتكفت طويلاً في غرفتها . ماذا بقي لايام العرس عشرة ايام فقط . عشرة ايام فقط وبعدها ...

ـ امينة !! امينة !!

فانتفضت كالملسوعه

ـ نعم ستي منور

ـ لماذا لا تردين هل انت نائمة لقد صرخت لك مراراً ؟

ـ لم اسمع يا سيدتي

ـ دائماً في اذنيك طرش اخرسي لاتتفوهي بشيء تعالي واحملي اخي الى سريره ونهضت امينة بجهد فحملت نور الدين ببطء وحملت منور هيفاء وحانت منها التفاتة الى الغرب فرات ان القمر قد غاب ..

وجلست منور تحل الملاقط عن شعرها بينما كانت امينة تقف امام النافذة في الصحراء التي تعيش فيها والتي لا تجد فيها رفيقاً ان نصوح قد ذهب ولم يبق احد ..

والتفتت امينه الى منور طويلا وتابعت عيناها يديها وهي تفك الملاقط واحداً واحداً وفجأة شعرت بدمها يسخن في جسدها وبأنها على وشك البكاء ثم اندفعت تنشج بعنف ..

واستدارت منور وقد رفعت حاجبيها مذهولة وقالت برفق

ـ ماذا بك يا امينة في هذه الايام هل انت مريضة

فركعت امينة وقالت وهي تنتحب

ـ لقد بقيت انت لي فقط يا سيدتي ضميني اليك . احبك يا سيدتي

وكان الليل يجثم خارج الغرفة حاداً بينما اندفع من بعيد صوت كلب ينبح ..

# اوسمة الشيطان

## ١

لئيم ، فاجر ، جبان .. قل عني ما تشاء ايها الصديق ، فقد تكون على حق في ذلك وقد لا تكون ، ولكن المهم ، ان اعتقد انني لئيم ، وفاجر ، وجبان ..

اتذكر يا صديقي ،ذلك اليوم الذي تعارفنا فيه ؟.. كانت السماء تمطر ، والبرد يقرص رأس انفي بقساوة .. وغاب راسي في قبة المعطف الغليظ ، الذي اتدثر به ، .. وكنت امشي في اروقة الجامعة ، يقرقع حذائي الجديد على الارض الناعمة الصلدة ، واشعر بلذة لا توصف ، والدفء يتغلغل في كياني ، وانا انظر من وراء النوافذ الى المطر ، وافكر انني بمنجاة منها . وتنتقل عيني الى الفتيات المستجدات يتعثرن في ملابسهن الطويلة ، وتدور اعينهن بنظرات زئبقية ، هنا وهناك..وقد غمرهن الجو الجامعي الجديد.. فاخذن يثرثرن ويتكلمن معاً ، ويضحكن في خجل ضحكات لا معنى لها ... ويتنشقن جو الحرية في الجامعة ... فكانت تلتقي نظراتنا ، وتقف قليلا .. ثم تدور من جديد في كل ركن ، وفي كل زاوية كأنها تبحث عن شيء محدد .

بدا لي شبحك النحيل .. وانت تتقدم من آخر الممشى ، وقد غرقت في تكدسات من الكتب الصغيرة والكبيرة.. فعلت شفتي

ابتسامة ساخرة وانت تتقدم نحوي ، وتوجه الي نظرة عجب ودهشة ، وعند ذاك وقع من يدك كتاب ، وكان فيما اظن .. نسخة من تاييس لاناتول فرانس .. ولم اشعر الا ويدي تمتد في سرعـــة ، فتمسك الكتاب .. وتقدمه لك في هدوء .. ولن انس نظرتك الساحرة .. وتمتمتك المرتبكة .. كأنك كنت قانطـاً حتى من الوصول .. الى مثل هذه المساعدة الصغيرة .

ومنذ ذلك اليوم يا صديقي ، كنت اجدك تنتظرني ، واعتدت دائماً . عندما ادخل الجامعة .. ان انظر الى العمود الضخم ، البني اللون في مدخل الجامعة .. الذي كان مليئاً بخربشات الطباشير فأراك قد استندت عليه ، وسيجارتك في فمك ، وانت تبتسم ابتسامة ، كـــانت كل يوم جديدة علي .. حبيبة الي .

٢

اكان من الواجب .. يا صديقي الحبيب .. ان ارجع الى الماضي ، لاسرد لك تفاصيل تعرفها ؟ .. ولكني اشعر بلذة كبيرة ، وانا اعاود النظر في تلك الايام الحلوة الطاهرة .. التي كنت فيها احترم نفسي ، وكنت لا ارى في عينيك ذلك الـ .. ولكن ، لماذا نستبق الحوادث ؟.

كنا نلتقي اليوم .. فنمشي صباحاً معـــاً ، ونحن ندخن ، ونتبادل شتى المسائل ، حتى اذا ازف موعد الدرس ، دخل كل منا في غرفة .. لنجتمع من جديد في الفرصه . وكنا نلتقي دائماً كأننا لم نلتق من زمن .. كل منا متلهف ، وكل منا مشتاق .. كان بيننا اتصال روحي عجيب ، لا يصبر ولو ساعة على فراق

صوري .

ثم كان ذلك المساء عندما فاجاتني بقولك: اسمع يا صديقي .. اريد ان اخبرك بشيء مهم .. انت لا تعرف اني قصاص !!.

ودهشت حقاً .. فلقد عرفتك ذواقة في القصة .. وكنت تنقد لي قصصي دائماً من وجهة فنية تفتنني .. ولكني لم اعرف انك تكتب القصة ، ورجوتني في ذلك اليوم ولاول مرة ان اذهب معك الى البيت لتقرا لي قليلا من قصصك وترددت طويـــلاً .. وساورتني رغبة لم استطع ان احللها في الرفض ، ولكنك جذبتني بقوة وانت تضحك: لا تخف ساطعمك ولن ادعك تموت من الجوع.

ورسمت ابتسامة على شفتي ، وعوى كلب جائع مقرور من بعيد ، وعرتني ارتجافة فضممت اطراف معطفي العتيق ، وتطلعت الى بناء النادي الرمادي ، وفجأت عيني اضواء سيارة قادمة ، بينما طرق سمعي صفير مزعج من محطة (البرامكة) فهززت رأسي ببطء وتنهدت ثم سرت معك ودهشتي لا حد لها من احساساتي المتناقضة كأنني اسعى الى غابة مجهولة .

## ٣

كنت ادخن بشغف ، وانا اسمع قصتك الرائعة ... بالله كيف كنت تخفي عني كل ذلك ؟ وكنت اشعل سيجـــارة من اخرى بصورة لا شعورية ..

لا تنبهني الى اسرافي في التدخين سوى سعلة كانت تنطلق لاهثة من فمي والا احساس بان لسان حاد كالشوك جاف كيد البخيل ممدود كلسان الكلب وفجأة سمعت دقات على الباب فتوقفت انت

عن القراءة وتوقفت انا عن التدخين وفتح الباب لتدخل فتاة .. وعلى يديها صينية عليها فنجان من القهوة .. ووقفت الملم ثيابي وازرر جاكتتي وسرى توهج كلسع النار في وجنتي وانا اسمع صوتك المرتبك : اقدم لك اختي انها معجبة بما تنشر من قصص . ولا اعرف بماذا اجبت ولكنني اذكر انني اخطأت وضع سيجارتي على المنفضة فنفضتها على السجادة الثمينة واذكر انني تشاغلت بالنظر الى دهان الغرفة وافلحت في ان الحظ التموجات الزرقاء فيه وآلم عيني ضوء الكهرباء القوي وسمعت تنحنحك مع صوت سيارة بعيدة يدوي بوقها بصوت مستطيل ثم اخذت تتابع قراءتك واخذت احاول ان افهم من جديد .

... وانتهت القصة واخذنا نتناقش فيها ثم ساد صمت مربك فاستأذنت بالانصراف واحسست بان نظرات اختك تحرقني وتجردني من ثيابي فاخذت اتململ واتشاغل بالنظر الى حذائي الذي يحتاج الى طلاء واخذت انظر يميناً وشمالاً كأنني جرو صغير القي في ماء بارد ثم اخرج الى شمس لاهبة . محرقة . وتركتك مودعاً فصافحتك وصافحت اختك وارتجفت يدي وانا امسك بحاجز السلم الحديدي البارد وشعرت انني خفيف الحركة فصرت اقفز السلم قفزاً كأني امير شرقي على بساط من ريح .

٤

أنت تعلم تماماً ان الصداقة عندي ليست معلقة تنتقل من فم الى فم ولذلك كنت لا افكر حتى بمجرد ما يسوؤك و كنت لا احس بجميع هفواتك الصغيرة والكبيرة على السواء .. انك صديق . و كفى ولكني

لاحظت بكثير من الدهشة والحيرة ان نظرتي اليك قد تغيرت . بل لقد كنت اتعمد ان اعد عليك الهفوات والسيئات الصغيرة حتى كدت في بعض الاحيان تبكي امامي ولكني كنت اسرع دائماً فاواسيك واعتذر اليك وانا لا اعلم لم آلمتك اولاً، ولم اعتذرت اليك ثانياً و كثرت زياراتي الى البيت حتى اصبح اليوم الذي لا اذهب اليك فيه يعد يوماً غريباً مملا ويقينا انني لم استطع ابداً ان احلل احساساتي في تلك الفترة حتى كان ذات يوم .

كنت جالساً امام ( الفونو ) تستمع الى اسطوانة ( فوكس تروت ) ثم لم اعرف من اين هبطت عليك فكرة الرقص فقمت واخذت بيد اختك ثم امسكتها عنوة واجبرتها على الرقص بين ضحكاتنا وتابعتكما بعيني وانا احس بجفاف في حلقي وبالم في فكي وفجأة انزلقت قدم اختك ووقعت على وجهها وانحسر الرداء المخملي عن ساقين نديتين مرتعشتين .

وقف كل شيء فجأة وهرب الدم من وجهي بينما اسرعت انت فساعدتها على النهوض وانت تحاول ان تضحك اما هي فاسرعت الى الباب واختفت خلفه ولم اراها بعد ذلك .

هل اصف لك يا صديقي تلك الليلة السوداء لقد خرجت فلاح لي كل ما حولي غريباً عني بدا لي عمود الكهرباء يمتد الى اللانهاية ورقصت امامي واجهات المخـازن واخذت انقل خطوي بصعوبة كاني انتشل خطوي من طين لزج وسبح راسي في دوامه فتمثلت اشباحاً عدة ترقص حولي وتدنو وتدنو حتى لأحس بلفح انفاسها على وجهي ثم تنشق فجأة عن امراة عاريه تماما كما خلقتها السماء فامسكت

راسي بعنف وعصرته حتى حسبت ان دماغي قد سال منه . اتعرف يا صديقي من هي المراة العارية التي تمثلتها ضمن هي الدوامة ؟.

انها اختك نعم اختك الطاهرة الجميلة الوديعة وتبين لي وقد اتسعت عيوني دهشة وذعراً انني اشتهيها كالحيوان وبحثت في خيالي المكدود عن شيء سام ، شيء مما يتحدث عنه المحبون من تصعيد في الحب وسمو عن الجسد ولصوق بالروح والحب العذري ولكني لم اجد شيئا سوى خوان نحيف وسطه ساقان نديتان مرتعشتان كذبالة الخطيئة ..

لماذا اخادع نفسي ايها الصديق انا اشتهيها هذه الانثى المتفجرة . واود ان .. امتلكها . احس بها رغبة هائلة مدمرة ادلج تحتها كحمار اعرج اثقل ظهره حمل من الكلس المبلول .

— ٥ —

كيف تريدني يا صديقي الحبيب ان اظهر امامك بعد ذلك ؟ . انت شديد الذكاء ولن انسى تلك الليلة التي ودعتني فيها والريب يعصف في وجهك وانا اسألك عن اختك وعن سبب احتجابها عنا .. ولا شك ان وجهي بدا غريباً وانا اسالك وكان جوابك مرتبكاً ثم قاسياً فادركت تواً انك قد عرفت وادركت انني احببت اختك فذلك طبيعي ومن المؤكد انه ظهر على وجهي دلائل اخرى حيوانية غير الحب الطاهر العفيف ولانني ايضاً لم اعد احترمك واقدرك الا لشيء واحد وهو انك اخوها ..

ولقد كنت تحس بذلك حتماً وكنت تألم له ويظهر اثر هذا العذاب الصامت على صفحة وجهك النبيل لقد كنت انظر اليك

وفي عيني تنتصب الساقان النديتان المرتعشتان كأنك كنت وجدت فقط لتذكرني بها .. فأحس بالخجل واتوارى عنك دون ان احييك ...

وفي هذا اليوم جئت مبكراً الى الجامعة وشعرت بعينين تراقباني من بعيد فالتفت لاجدك وقد استندت الى العمود البني اللون الذي ملأته خربشة الطباشير وبضعة اعلانات تنبئ عن ظهور مجلة جديدة وفي فمك سيجارة وفي عينيك توسل وفي جنبك تلهف لان تعيد المياه الى مجاريها .. ووقفت امامك لحظة وتمنيت ان اتقدم اليك فالقي براسي على كتفك واسالك الغفران وانا ابكي وابكي حتى اشعر ان دموعي قد غسلت افكاري الدنسة ولكنني تذكرت توآيا الهي لاشيء لا شيء سوى الساقين النديتين المرتعشتين كذبالة الخطيئة ..

شعرت بالدمع يجول في عينيك ثم راقبتك وانت تدور بيأس وتسير بعيداً بعيداً حتى تغيبك عني كوكبة من الطلاب والطالبات واحسست انني فقدتك وفقدتك الى الابد ..

استدرت وانا اشعر بمغص حاد مؤلم وخيل الي انني انلاشى حتى اختلطت بالتراب واستقبلت اول زاوية لاذرف فيها دمعة مهما تكن فانها اطهر دمعة ذرفتها في حياتي ..

يا صديقي الحبيب قل عني انني لئيم وفاجر وجبان ،فقد يكون ذلك وقد لا يكون ولكن المهم انني اعتقد انني لئيم وانني فاجر وانني جبان وانني قد استحققت عن جدارة اوسمة الشيطان الثلاثة .

# الخيط المشدود

« مياه كثيرة لا تستطيع ان تطفىء المحبة ، والسيول لا تغمرها . ان اعطى الانسان كل ثروة بيته بدل المحبة تحتقر احتقاراً »

نشيد الانشاد : الاصحاح الثامن

ــ تفيه عليك .. . يا كلب !!

وغار المقعد به ، واندلق دمه على رأسه كله دفعة واحدة ... كيف ؟ كيف حدث ذلك ، انه لا يصدق ولكنه حصل.. والله العظيم حصل هكذا كان الموقف بكل بشاعته وقذارته ، ما هي الكلمة التي اشعلت البارود ؟ .. انه لا يتذكر تماماً ، ليستعرض الجلسة جيداً ... ورن شيء بعيد واندفعت صفارة قاطرة نحو اذنيه متسللة من شقوق باب غرفته المتطاول ... لعنة الله على المشاحنات ... هو جالس كما يجلس الناس ،يتكلم كما يتكلم الناس الى جانبه اخوه عثمان، انه يذكر وجهه الذي يشبه قطعة البندوره الفجة بجبهته العريضة وقد نفر في اواسطها عرق الغضب الذي يتناهى صعداً حتى يختفي وراء غابة لامعة من شعره الكثيف ، واصوات لغط متشابكة ،وجوه حمر وافواه متحركة حتى الخادمة العجوز التي تحتل فمها تثاؤبة خالدة كانت مطبقة فمها بعنف .

ــ تفيه عليك يا كلب .

نعم قالها ابوه ، كيف يصبر ؟ كيف . والآن ماذا بقي من البسته البذلة البنية ، وتناولها بعصبية ثم دفعها في الحقيبة المنتفخة القديمة دون ان يعبأ بالمسمار الصغير الذي اعترض يده تاركاً عليها خطا دقيقا احمر،والجوارب ، وامسك بيده زوجا حريرياً اعـــده لمناسبة العيد ووضعه قسراً في زاوية الحقيبة المتلئة . لم يبـــق شيء ... وتلفت حوله مستطلعاً : طبعاً لن ياخـذ الكتب انها شيء ثقيل ، وهو لم يفكر حتى في مصيرها،واطبق الحقيبة بصعوبة وفكر بأن آخر ترام نزل الى المدينة قد مضى عليه اكثر من ساعة

لا بأس سيذهب ماشياً بحمله الثقيل وسيثبت للعالم باجمعه انه رجل يأبى ان يسكت على الاهانة ولكنه سينتقم انتقاماً مريعاً فظيعاً ... وذكرته هذه الكلمة بالاولاد الصغار والمراهقين حين يعلقون على افلام ( الكوى بوى ) ولكنه لم يجد غيرها ...

وانتصب واقفاً وصدره يتقد وقطرات متصلصلة تنزلق على لحمه ، والهواء قاس مزعج ، والذباب يطن في الغرفة طناً متواصلاً ففرك كفيه وهو يدمدم :

— سانتقم ولو بعد عشرين سنة

وتذكر رواية من روايات الجيب قرأها،ينتقم البطل فيها بعد ثلاثين سنةوذكر ايضاً مونت كريستوا وصرخ في اعماقه :

لماذا اجلس واحقد ... العظماء كلهم تفرقوا عن اهلهم بسبب افكارهم .. وهو .. الا يعيد نفسه لشهرة وخلود كهؤلاء العظماء فلم يتردد ؟ ولكن من الذي يقول انه متردد ، وهز الحقيبة بعنف وصر على اسنانه ونظر في المرآة فاعجبه حنكه وقد برز من وراء

جلدة خده يدل على غضبه وصلابته وعزمه.. تفيه عليك يا كلب؟ متى كان يتقبل مثلها ؟ .

هذا الهرب ينقذه من اشياء عدة : للحلاق عنده ثلاثون ليرة بالتمام ، سيتخلص من لثغته الشنيعة ، وضحكته التي يبرز منها فراغ نابه المقلوع ، وثرثرته وكلامه المعاد : اهـلًا بالاستاذ ثالم بك كيف الصحة احك لنا عن حرب كوريا . ثم من ماذا ؟ مـــن الدخنجي اللعين الذي تجرأ وطالبه بالمبلغ .

ـ والله لو لم اكن معسوراً لما طالبتك... نفس النغمة للدائنين الخنازير . وللخضري اثنتا عشرة ليرة ثمن قهوة وشاي وسكر فهو ـ بلا مؤاخذة ـ يحب الاستقلال في البيت حتى بثمن القهوة... ارقام محترمة لا بأس بها سيلقيها وراء ظهره كتنكة من الزبالة... وتصور الدائنين وهم يطرقون الباب يطلبونه وتصور وجه ابيه وانفه المعقوف وقد تطاول شارباه الاهدلان وحول عينيه الصغيرتين غضون كثيرة تزداد عمقها

ـ نعم !!

ـ سالم !!

ـ يا اخي افهمتك مئة مرة ليس هنا ، ليس هنا لقد ذهب ، لا اعرف اين هو !؟ . لا اعرف !..

نعم سيتألم ... ولم لا ؟ سيعض النـــدم جسمه ووجهه انه مستحق .. لم يحافظ على ابنه كما يحافظ الآباء !!.

وعوت صفارة القطار من جديد واصطدمت ذبابة بالمرآة محدثة طنة داكنة بينما كانت رائحة الزيزفون تنبعث خفيفة من النافـذة

تذكره بالضفادع التي تنق من بعيد ...

البيت الآن نائم كله ... لينامو الى الابد ، كم يتمنى ان يدخل غرفهم الآن واحداً واحداً وان يحدق في وجوههم وان يستمتع برعبهم قبل ان تقبض يداه على اعناقهم .

انه الآن حقير عندهم ... وتذكرهم واحداً واحداً ، اخوه عثمان الى يمينه وممدوح يجلس قبالته يداعب ابنه العليل القـذر ـ فما عني يوماً ان يلبسه صديرية بيضاء ـ وامرأةاخيه تساير بالكلام بنت عمه منيره ذات القذال المدور والبسمة المتحدية الدائمـة بينما تحاول ان تبعد بنتها الكبيرة وهي تطلب منها فرنكاً بالحاح . .

اما ابوه فقد كان يتصدر المكان لابساً طاقيـــة بيضاء وقميصاً خفيفاً من الفانيلا وقد لمع انفه المعقوف كقبضة الحمالين الحديدية .

لماذا ناقش وبدأ الحديث ؟ انهم لم يقنعوا ابداً هو بالشرق وهم بالغرب ، تذكر اخاه عثمان وهو يقلب راسه

ـ يا سلام على اللخبطة ... يا عيني اسمع يا بابا واحد منا معه مئة الف ليرة جناها بالجد والتعب وعرق الجبين يساويه مع واحد ليس معه فرنك يشتري به بصلة .

واحتد هو واخذ يتكلم .

ـ لاضرب لكم مثلا ابن الجاماتي كان .....

ويقول ابوه

ـ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا

ـ ان العباقرة والاكفاء مهملون لان ...

ـ بدون حيونه،الله هو الذي قسم الحظوظ بين الناس، الدنيا

هكذا ، بدون اعتراض على الخالق .. الدنيا رمضان.
ـ كل شيء نلصقه بالخالق فان .....
ويقول ابوه بعد ان استمع اليه وهو ممتقع الوجه .
ـ اخرس بدون علك و كلام فارغ .. بدون كفر واعتراض ..
استغفر الله العظيم اللهم اني متبرىء من هـــذا الكلام
وقال اخوه ممدوح وهو يتمخض كدجاجة تبيض :
ـ يا حبيبي على العلم الذي يوصل الى الزندقة .
ـ يا ليتنا لم نضعك بالجامعة
ـ اللهم احفظ علينا ديننا يأتي قوم في آخر الزمان ...
فيقاطعه
ـ مسكين هذا الزمن لم يفسد وانما فسد اهله .
ويتشعب الحديث ويجيء ذكر خالد بن الوليد فيقول ابوه متحديا :
ـ خالد بن الوليد قائد لم تنجب الدنيا مثله ولن تنجب
ـ على مهلك على مهلك يا بابا لا تبالغ .. يجب ان لا نتعصب
خالد قائد عظيم حقاً ولكن هناك آخرون عظام ايضاً
ونظر الى بسمة بنت عمه المتحدية الساخرة ونكت يظفره قطن المقعد ، لماذا تنظر اليه هذه المخلوقة الكريهة ؟ وتزداد الضجة حوله وتتحرك بضـــع مقاعد ويصفر القطار وينقصد العرق من جبينه ويصيح :
ـ هناك كثيرون قـــد يفوقونه نابوليون زومل هانيبال الاسكندر .

نعم انه يذكر جيداً ان هذه الكلمة كانت هي الحجر الذي قذفه في البحيرة ورأى وجه ابيه وهو يحتقن .

ــ تفيه عليك يا كلب

والواقع ان الدهشة التي اصابته هي التي شغلته عـن ازالة نثار البصاق من على كمه ووجهه ويديه .

تفيه عليك يا كافر ، تفيه عليك يا خنزير ، يا زنديق يا ملحـد تفيه .. تفيه . تفيه .

. . .

لا كرامة لنبي في وطنه .. لماذا بالله يبقى في البيت بعد هذا ؟ واي رابط يربطه بعد الآن ؟

ابوه ؟ وقد اهانه امام الملاء .. صحيح انه يؤمن بعبقرية خالد بن الوليد ولكن اندفاعه كان لرد التحدي ، اما اخوه الاكبر فقد ترك ابنه وشارك اباه السب وهو يلوي شدقه

ــ ... عليك وعلى علمك وسحنتك .

اما اختاه اللتان اوصته امه قبل ان تموت بهما .. وتذكر امه في تلك اللحظة بوجهها الساذج المدور وعينيها اللتين تقبـع فيهما دهشة دائمة والبقعتين الحمراويتين على خدها الطري ..

ترى لو كانت الآن في البيت اكان يغادره ؟ ولم يـــدر لماذا احس برغبة في ان ينسى هذه الذكرى .

هذه الام التي كانت تعبده في صمت ، والتي كان دائماً يسمع في الليل تنفسها الذي يقطعه سعال خفيف رتيب .. وتسمع في السكون كأنه يريد ان يبلغ اذنيه تنفسها في الفراغ العميق الذي يلفه ، كما

كان هناك شيء دائم يربطه بالحياة ويجعله يحس بانه يحيا .. تنفس يقطعه سعال .. تنفس يقطعه سعال ، ويشعر انــه يخترق حيطان غرفته الملاصقة في موسيقى رتيبة حيوانية وعند ذلك فقط يشعر انه في الفراش وان رجليه باردتان فيحر كهما بعنف حتى تدفأ .. ويروح يعدد احداث يومه . تنفس يقطعه سعال . . تنفس يقطعه سعال .. تلك كانت حركة حياته كأنه رجـــل ينظر الى الساعة ويحصي فيها الوقت او الى تقويم ينظر فيه الى ايام العطل كموظف قديم .. تنفس يقطعه سعال .. تنفس يقطعه سعال ..

هذا هو النسغ الذي يجري في دمه .. والخيط الذي يشده الى عجلة الزحام .

واصغى من جديد .. يقينا لن يسمع سوى صوت شخير ابيه، لماذا لا يكون هذا الشخير كتنفس امه الذي يقطعه السعال ؟

ولكنه لا يحس به الا رتيباً كصوت ساعة دقاقة تعود على دقاتها العالية فلا يحس بوجودها . شخير يساعده على ان ينسى انه حي يحس بالحياة في كل خلية في بدنه .. ولكن الشخير اليوم غير مسموع .. لعل اباه جالس يقرأ القرآن حتى السحور؟. فمن عاداته في بعض الاحيان ان يفعل ذلك.

الآن فقط شعر بالفراغ لموتها . لو تعود الآن ..في هذه الدقيقة الى الحياة .. تنفس يقطعه سعال .. ويحس بخلاياه كلها تتحرك كموسيقى ابدية .. فيضعها الى صـــدره بعنف ثم يفلتها ويحترق كصوفي مات بعد لحظة من لحظات الكشف ، لقد كان يعرف انها ستموت حتما .. وكان ذلك لا يخيفه ، بل لعله يتوقعه ليظفر بشيء

جديد مدهش يعكر حياته ويهز خلاياه.

هذه الام المعروقة التي ظلت الى النفس الاخير تحدق في السقف بعينيها المدورتين اللتين تقبع فيهما دهشة دائمة.. رافضة اية مساعدة مالئة الفضاء مع ذلك بسعالها واهاتها ، كانوا وقوفاً حولها كأنهم امام كعكة كبيرة فيها شموع كثيرة.. كثيرة جداً ، ينتظرون بخوف باباً مجهولاً يفتح في احد الاركان فتهب معه ريـــح شديدة تطفىء هذه الشموع كلها بهبة واحدة فتسرع اخواته الى البكاء واشعال النور القوي الذي يشعر انه لن يبلغه .. بل سيبقى دائماً يتمسح بالتنفس الذي يقطعه السعال تمسح الطائف بالحرم فتتقبض يده عليه تقبض يد المحتضر على حصى الارض .. ثم يحاول ان يهرب بعيداً، كان كذلك الرجل المحبوس في سرداب مظلم والذي يجاهد للخلاص من ظلامه حتى لاحت له ثغرة فيها ضوء اندفـع اليها كما تندفع النباتات نحو نور الشمس رغم علمه بان هـذا النور قد ينطوي على خطر افظع من خطر الظلام الدائم .

كان يقف دائماً في غرفته الملاصقة لغرفتها وشخير ابيه في السرير الآخر يقطع السعال المتصل وصوت نافورة المـاء الرتيب يتصاعد الى اذنه وسط الظلام المخيم...

كان ينتظر انقطاع السعال ويحبس نفسه لحظات كلما حبكت السعلة على الحنجرة الضعيفة . .

لعله كان ينتظر ان ينقطع الى الابد ؟ لعله كان يفكر كيف يعمل حين ينقطع ، لعله فكر كثيراً هل سيحزن ام لا ؟ ولكن السعال يتصل ، ونافورة المياه تبعث خريرها الباهت البارد والليل

العميق البعيد كان يتثاءب في ملل .

ويندفع اليها في تلك الاحوال ويقف امامها ينظر الى عينيها الحمراوين ووجهها المحتقن ، وكانت ترفع رأسها اليه في نظرة لا يستطيع تصورها الا ويرتعش .. ثم تبتسم له وينقطع سعالها بعض الشيء لتعتصر من الحنجرة الرخوة هذه الكلمة المبلولة الندية التي يسمعها تدغدغ وجهه بشعر ناعم اشقر

ـ هل ازعجتك يا بني ؟

ـ ابداً يا ام

ويرجع غير شاعر بدموعه الا حين يحس بطعم الملح في فمه وبألم الحرقه في عينيه . وفي بعض الاحيان كان يغضب من سعالها المتصل ، ويلعن الحياة والكون ، هل قدر عليه ان يقضي دراسته امام رنة رتيبة تذكره دوماً في الموت ؟ ولكنه لن ينسى ابداً ذلك اليوم الذي اراد ان ينتقل فيه من غرفته ليستعـد للفحص وسط الهدوء المخيم وعندما احبكت عليها السعلة في الليل اسرع اليها ، ولكنه علم للحال انها قد علمت بعزمه ، كأن في عينيها تأنيب صامت قطعه سعالها وعندما اراد ان يساعدها لاسنادها على المخدة ردته بلطف وهي تقول :

ـ انا مرتاحة يا ابني .. انا مرتاحة .. لا تتعب نفسك

ـ يا ام ...

وعندما انكب على يدها ووجهها يبللها بدموعه كانت هي الاخرى تبكي وتضم رأسه ذا الشعر الملبد الى صدرها وتقبله في حنو وعطف .

كم يتمنى الان ان يسمع رنتهـــا الرتيبة ، وينظر في عينيها

الحمراوين الدهشتين.. شد ما اساء اليها في حياتها ، شد ما نالها على يدي ولدها المدلل من عذاب !..

لقد كان ابوه يثور كلما دافعت عنه،وكان هو يختبيء وراءها لتتلقى عنه بعض الضربات الطائشة من عصا ابيه،وكانت لا تستطيع ان تعيش بدونه لحظة واحدة ، ليته يستطيع الان ان يضع راسه الواهي على حجرها وينام.. ينام الى الابد .. انه متعب واعصابه منهوكة .. ليته يحس بشفتيها الدافئتين على صفحة خده.. انه في حاجة الى المساعدة الى العطف، الى الحنان، الى مشاركة الآخرين في البكاء الى فعل اسطورة بطولة جمعية حقـه ، انه مفرد ، وحيد ، كحمار اجرب ، يريد ان يسمع كلمة تؤاسيه ، ليت اختيه جاءتا كالعادة الى غرفته لتستعير مجلة جديدة.. اذن لشاهدتاه محمر العيون يريد ان يبكي. . هاتان الاختان اللتان كانتا دائماً في صراع متصل مع امها تلك التي اوصته بها.. لقد كانتا تتذمران من قعدتها الدائمة في سريرها الذي يئن تحت السعال المتصل وقد سمعها مرة خلسة تتحدثان من وراء الشباك الخشبي الهرم والجو صاف والنسيم يهدهـد الانفاس ورائحة النسيم تفعم الانوف والسنونو يحتل عرش السماء ، وكانت اعتدال منحنية فوق صديرية صوف تشغل فيها الصنارة النايلون

– ان الناس لن يتزوجوا اية واحدة منا

– طبعاً ما دامت هذه الكركعة فوق التخت

– انهم يشيعون عنا اننا مصابتان بنفس المرض

– العمى في هذه الحياة ..

وتختنق انفاسه برائحة النسيم ويصم اذنيه صياح السنونو الراكض

ويختبيء وراء الدرج الخشبي الاحمر ذي الرائحة الكريهة وهو يمسح عن راسه خيط العنكبوت الذي التصق في قرنة الخشب ويكاد يقع على الارض

— ليتها تموت

— اعوذ بالله. لا تقولي هكذا

— العمى في هذه الحياة

وفي الليل عندما يسمع تذمرها يدفن راسه بين يديه ويتشاغل بالقراءة وهو يتصور وجه امه الاليم عندما تقع من يديها الواهيتين عندما يصلحان الفراش ، وكان يعرف الصرخة المكتومة فيسرع ليرجعها الى السرير في لامبالاة من اعتاد العمل ، وكان يحاول ان يخرج سريعاً حتى لا يسمع كلمتها التي كانت ترددها :

— الله يرضى عليك يا ابني

وعندئذ .. وعندئذ فقط كان يشعر بحاجة لان يبصق على نفسه لقد اوصته امه باخته، ولكنه لم يستطع ان يصبر على اهمالها له بهذه الطريقة.. انه يذكر انه نبه مرة اخته اعتدال التي هي اصغر منه بسنتين الى ان رطلين من البندورة شيء كثير لطعامهم فقالت لهم فوراً وقد وضعت يدها على خصرها

— ومتى اطعمنا كم الطبخة اكثر من يومين ؟

فقال محتداً — الطباخ روحه والفاصوليا وكثير

فقالت مفحمة — اذا لم يعجبك ذلك فاذهب الى بيت آخر

وعندما جاء في المساء انتظر منها ان تعتذر اليه ولكنه فوجيء حينما قالت له :

– لن اضعها لك واطئة ابداً .. ابداً .. لن تنال مني ، لن تذلني ما دام ابوك حياً

وكانت منتصبة يلهف وجهها اعتداء كئيب، وثوبها الاحمر القاني يتهزهز ظله على المدخنة التي تقلل هامتها امطار الامس، وانتابه ذعر غاضب..ما دام ابي حياً.. .احس انه مخطىء رغم ايمانه بحقه .. ما دام ابي حياً.. وحين ادار وجهه ليخفي خجله وذعره كان جسده يرتجف مع البركة الصغيرة من ماء المطر التي زردتها الريح الشرقية المشبعة برائحة دخان المحطة القريبة . مـاذا يفعل بهاتين الاختين ؟ دائماً تنتصران عليه ، وكلما غضب منهما يومـاً وجد في وجه ابيه الكامد صدى غضبه ، وعندما كان يحتد ويثور في وجهها كانت دمعة بسيطة من العيون البراقة كافية لان تجعله يحس بالخزي والعار ويشعر بانه يريد ان يعتذر وكان يسمع قول اخته عائده

– آه آه انظر الى اخوات العالم دائماً يشيلوهن على الراحات ؟ ماذا عملت يا ربي حتى اتعذب هكذا مع اخوتي ؟

ولا يجد امام هذا الكلام سوى ان يهرب وينزلق ، حتى يتمنى ان تبتلعه بالوعة المطبخ العتيق . ولن ينسى تلك الورقة الساذجـة عندما اخبرهما بعنف انهما اهملتا تنظيف غرفته شهراً كاملا ولما عاد في المساء وجد الغرفة مرتبة وعلى الطاولة كانت ورقة صغيرة كتب عليها هذه الكلمات بالحرف :

( الى اخي سالم في يوم الثلاثاء ٣٠ تشرين ثاني :

لقد نظفنا غرفتكم لانكم تنكر المعروف وان نكرتـكم فان الله شاهد اعتدال

( الى اخي سالم في يوم الثلاثاء ٢٠ تشرين ثاني )
انك من النكارين وانظف انا كل يوم الغرفة وتقول لي ياعائده كل شهر تنظف الغرفه ، انت لست حناين لنا . آه ، آه ، ان الله أحن من الجميع

عائده

وهو يذكر ان هذه الكلمات على سذاجتها وامتلائها بالاخطاء المضحكة استطاعت ان ترسل الى عينيه دمعة صادقة، ما اشد حاجته الى ان يقبلها الان قبل ان يذهب أليس جميلاً ان يودع الجميع ...

وتصاعد اليه صوت سيارة شحن بعيـدة تشق الطريق ، انه لا يسمع الشخير ، ولا يسمع ابداً اية حركة من غرفة ابيه . . . في الغرفة الاخرى ، التي يفصل بينها وبين غرفته حائط ، يجلس ابوه الذي اهانه . غامضاً حتى ليشعر انه يريد ان يكتشف نفسه المليئة بالاسرار... كم يشعر بالحرج دائماً عندما يجلسان معاً حتى لا يعرف كيف يتكلم ، فينتهز اول فرصة للهرب ... لماذا خلـق ابوه هكذا جامداً لا يعرف كيف يحب ... انه يعرف انه من النوع الذي يكتم عواطفه. لم يره طوال عمره يبكي الا عندما تقرا عليه قصص دينية مؤثرة بل كان دوما يحمل وراء عينيه العميقتين اسراره الخفية ، كم يتمنى ان يربت ابوه على كتفه ذات يوم او ان يمسد له شعره او يدعه يقبل يده على الاقل ولا يخيبه دوماً باجابته الدائمة :

– مسامح

آه لو ينفتح هذا اللغز الصامت .. تمنى ان يسافر حتى يراسله ليعرف كيف يكتب وكان مجرد تصوره قراءة كتاب مـن ابيه

يهزه ويرعشه ويملاءه بالفضول ماذا يكتب ؟ واي العواطف يكن له .. ولذلك كان في اقصى درجات السعادة حينما وجد مرة على الطاولة ورقة صغيرة بخط ابيه .

لم يصدق عينيه في بادىء الامر ولكنه يعرف خط ابيه جيداً ذلك الخط الجميل الذي تكثر فيه الاغلاط اللغوية والاملائية . .

كان قد دخن سيجارة في غرفته ولما عاد من الجامعة وجد هذه الورقة وحينما امسك بها احس كأنه امام ابيه

( الى ابني سالم افندي حفظه الله .

شرب الدخان ممنوع في هذه الغرفة خوفاً من الخطر حيث كله اوراق وما يشبه ذلك او يكون الانسان حاتط سيكاره ويغفل على غفله يحصل شيء من روح نحنو والبيت لاسمح الله ايا كم والدخان ايها الشباب المسقف )

كم كان نبيلاً وطريفاً هذا الكتاب الخليط من العامية والعربية لاشك ان اباه اراد ان يداعبه وكم ضحك طويلاً عندما وجده قد شطب كلمة المسكف بشكل يجعلها ظاهرة ووضع عنها المسقف . .

كم يكون ابوه ظريفاً رائعاً في بعض الاحيان .. ولكن اليوم لماذا فعل ذلك لماذا ؟ .

تفيه عليك يا كلب ؟ شيء غير محتمل ،

وتلفت حواليه وصوت النافورة يتصاعد اليه مخترقاً الصمت العميق ، وخيل اليه ان صوت موسيقى بعيدة غامضة تتسرب اليه تحملها ريح الجنوب ونظر الى الحقيبة بشيء من التعب ، كم يتمنى ان ينام نوماً طويلاً سنة مثلا او على الاقل يكون كالحيوانات

التي تنام طول الشتاء نوماً ثقيلاً فلا تحس بشيء

الآن .. فقط سمع تقلب ابيه على السرير ثم فجأة احس برعب قاتل قد فتح باب غرفة ابيه ، وها هو صوت خطواته يـدنو من غرفته .. لو يستطيع ان يبلغ زر الكهرباء فيطفئه ، ولكن الباب قرع ثم فتح بهدوء ، وها هوذا ابوه منتصب امامه وعيونه حمراء من السهر ، وطاقيته البيضاء متهدلة على جبينه وامارات تعب شديد ترتسم على شاربيه وفكه وحول عينيه وخيل لسالم ان دهراً طويلاً مضى وابوه ينقل بصره بينه وبين الحقيبة ثم يقول بهدوء :

– الم تنم بعد يا بني ؟

بماذا يجيب ؟ لو انه اعتذر لو انه قدم اي وقود لغضبه ، ولكن هذه الكلمة المتجاهلة ...

لاجل صحتك يابني يجب ان تنام جيداً حتى تستطيع القراءة ...

– صحيح ...

الم يجد غير هذه الكلمة البلهاء السخيفة .. صحيح .. لو انه سكت ، لو انه فعل اي شيء لو تذكر تفيه عليك يا كلب ، ولكنه لم يجد غير هذه الكلمة ... صحيح يا له من طفل غبي جبان

– لقد اقلقني طول الوقت ضوء غرفتك فخفت ان تكون مريضاً

احس بانه يتنفس ، احس بالارتياح ... فرفع راسه

– اني بخير يا ابي

– نم يا بني ارح جسمك .

– لا استطيع النوم .. اني مصاب بالارق سأسهر قليلاً ، وتناهى اليه صوت ابيه عميقاً مبلولاً كأنه صوت امه حتى لقد ظن انه يسمع

معه السعلة الرتيبة .

- كما تشاء ! هل لك ان توقظني على السحور ؟ لم يبق لي سوى ساعة .. لقد ربطت الساعة ، ولكنني قد لا افيق .. تصبح على خير يا ابني

واغلق الباب وابتعدت خطواته ثم سمع سالم صوت السرير وهو يطقطق ، ومضت مدة ، طويلة جداً ، حتى سمع صوت الشخير

ولكنه احس بأن ما يسمعه ليس هو الشخير الذي يسمعه كل ليلة .. خيّل اليه انه كان تنفساً عميقاً تقطعه سعلة ..

وشعر سالم بان خلاياه تتحرك من جديد وتبدا الحياة . وعندما اغمض عينيه لينـام لم يكن يسمع سوى ذلك الصوت المتقطع .. صوت التنفس العميق الذي يقطعه السعال المتصل .. الرتيب .

# سريري الذي لا يئن

ها أنذا وحدي من جديد ..

مددت يدي وانتزعت السيجارة الاخيرة ، واخذت ادخن باستغراق وأتأمل الغرفة حولي .. هـذا الضوء الخفيف الكئيب ، الذي لم اتعوده ، يجعلني افكر جدياً بان اغمض عيني واحاول ان انام .. ولكني شعرت بانه يجب ان افكر ، وان افكر تفكيراً عميقاً فيما انتهيت اليه ، يالله !! ما جدوى كل ما فعلته اذا كنت لم اتعود ، ان اغضي بصري عن هذا السقف الملون العجيب ، وان لا اشعر انني انام على سرير يئن تحتي كلما قمت بأقل حركة ممكنة؟

كانت موسيقى راقصة بعيدة تتناثر الى سمعي من نادي الشرق الذي قالوا لي ان عينه لا تنام قبل زقاء ديك .. ولكني مع ذلك كنت احس بانني حزين .. بل بائس ..

هذه الكلمة التي فقدت مدلولها تذكرني دائماً بنفسي .

بائس ؟.. وماذا بعد ؟ هل اطلب لنفسي رثاء أحد ؟

ها هنا في الغرف حولي ، انفاس تتردد بانتظام ورتابة ،تذكرني بالانسان العجيب .. رئات تتمدد وتنكمش وتحيا ، وادمغة ترى الآن ، مئات الاشياء الملونة المجنحة التي تنطفىء في الصباح مع لذعة الشمس .

لقد نظروا الي بريبة في بادىء الامر ، وتفحصني الاولاد في قلق ، وانتحى الاب بي ناحية ، واخبرني وهو يسعل ويحاول ان لا يحمر وجهه ، بان بيته شريف وانه يريد ان يبقى شريفاً .. ثم افسح لي الطريق ليدلني على الغرفة .

لا بأس فأنا اعبد الاطفال لدرجة الجنون .. وانا اعلم تماماً ، بأن أياماً قليلة ، ستجعل من هذه الوجوه الهزيلة الساذجة ، تتهلل عندما يظهر شبحي على الباب ، وسأعقد تلك الصداقة التي اعرف يقيناً انها لن تتعدى ذلك اليوم ، الذي احمل فيه حقائبي والوح بيدي مودعاً ، وانا احاول ان ابدو رومانتيكياً حقاً .

اخذت اتأمل الغرفة حولي والموسيقى البعيدة لا تزال تتصاعد مع اغنية بلدية من مذياع مجاور .. هل سأبقى في هذه الغرفة حقاً؟ هل سأنام واستيقظ ، واغسل وجهي ويدي ، وامشط شعري ، وآكل واكتب .. مع هذه الجدران التي شهدت قبلي الف وجه غريب وهي ساكنة محدقة بعينيها البلهاوين الكسولتين ..

قلت لهم اني سأشاهد غرفتي قبل ان ارحل ، فسكتوا جميعاً ، وقالت اختي مديحة : انه ليس فيها احد ، فاندفعت ارتقي السلم اليها .. آه ، يا غرفتي العزيزة .. يا الموجة الباردة الرطبة التي احسستها على وجهي وانا اراك فارغة !! تحتضنين بضع اوراق متناثرة هنا وهناك ، في فوضى واهمال ، وجدرانك التي كانت فاصلة ، اصبحت اشد ميلا الى القتامة ..

هنا كانت الطاولة .. وهناك السرير الخشبي الذي كان لا يئن تحتي ابداً .. وفي الزاوية ، كنت امدد الكتب ، وهناك ..

كنت اضع وجهي على بلاطك الاملس في اماسي الصيف ، واحلم بألف حياة حرة عادلة ..

ابداً يا غرفتي العزيزة .. ابداً لن تقوم صداقة بعد ، بيني وبين اية غرفة اخرى في العالم ، ولسوف اذكر الى الابد تلك الجدران التي كانت تقف صامدة في وجه الشتاء ، تردها عني بصلابة ووقار.

ليست غرفتي فقط هي التي ودعتني !!. لقــــد شعرت بالبيت الفسيح كله يعتريه وجوم وصمت ... الارض . . والياسمينة . . والفلة التي وضعت لها السماد منذ يومين .. وحتى القطتان الصغيرتان اللتان كانتا لا تفتران تتصارعان وتنطان .. بدتا هادئتــــين .. واعينهما المدورة الجميلة مثبتة على شيء مجهول .

كم من الاشياء التي تبدو بسيطة سريعة .. لا تنفك تصبـــــح معقدة متشابكة .. لقد كنت اريد ان ينتهي الامر بهدوء . . ولقد هيئت لذلك كل شيء ولكنها . . مع ذلك ، اخذتا تبكيان كثيراً اقسم انني حاولت ان الم كتبي بدون اكتراث ، وان أقسر نفسي على الثبات ، ولكن هذه الدموع .. كيف استطيع ان اقاوم ؟ الدموع .. ما اشد ابتذال هذه الكلمة !!. ولكنها ، مع ذلك ، تلخص حياتنا الشقية .

أدرت وجهي حتى لا ارى .. ولكن علام المقاومة ؟ اخي .. اخي الصامت دائماً ، اخذ يبكي ايضاً .

خيل الي ان التحدث عن اشياء كثيرة تافهة ، قــــد يجعل من العبث التفكير في الحزن .. فاخذت أثرثر ، وان كان التأثر يعلو وجهي .. فتحدثت عن التفاني في سبيل المبدأ ، وان من الواجب

ان نضحي باشياء عظيمة كي نصل الى غايتنـــا .. وقلت ان من الطبيعي ان انفصل ما دام هذا الاختلاف الهـائل يسمم حياتنا ، ويجعلها عشرين حياة في سجن مظلم رطب . ولكنهم ، مع ذلك ، اخذوا يبكون كثيراً .

انقطعت الموسيقى الآن ، وخيل الي ان الضوء اشتد قليلا .. ولا تزال الانفاس المختلطة مع سعلة ضعيفة وبكاء طفل صغير تصل الى سمعي .. لا بأس ، ليئن هذا السرير تحتي ما شاء ، فان كنت لا استطيع ان ادخن سيجارة اخرى فلا اقل من ان اغسل وجهي الملتهب بالماء البارد .

قلت لهم :

– لا تنسوا فرشاة الاسنان !!.

فقالت مديحة بصوت خافت :

– لقد وضعناها !!.

وقالت سعاد ، اختي الصغيرة ، وانفها اللطيف يلمع في النور:

– لقد كوينا لك كل ثيابك .. واصلحنا لك الجوارب .. اما القمصان ، ثم سكتت فجأة واستأنفت بكاءها ..

بدت الامور معقدة حقاً .. وكانت تختلط في كثير من السرعة وكنت احس بألم شديد في معدتي

– لا تنسوا شيئاً .. ارجوكم .. لا اريد ان ارجع مرة اخرى !

قالت مديحة :

– عندما تتسخ ثيابك .. ابعثها الي .. ارجوك يا اخي

وقالت سعاد :

ـ من اين ستأكل يا مسكين ؟

من اين آكل ؟ هل فكرت بهذا حقا .. الاكل .. البكي .. الثياب .. القمصان القذرة .. هذه الاشياء التافهة لم افكر فيها مطلقاً .. ولكن لماذا التفكير .. لا يمكن التراجع الآن

ـ لماذا .. لماذا فعلت ذلك ؟!

قالتها مديحة في شبه صرخة .. لقد وجدت في النهار متسبب لتبرير ما فعلت .. اما الآن فقد شعرت بان اي شيء في العالم لا يوحي بالحماسة .. نعم .. لماذا فعلت ذلك ؟

ولم استطع ان اتصوره الا وهو يبكي .. لا اعرف كيف حدث ذلـــك .. لم أر ابي سوى مرات معدودات وهو يبكي ، وقت ان ماتت امي ، ووقت ان كنـــا نقرا له المعراج وسورة يوسف ، واخذت تطاردني صورته ، وقد تدحرجت من عينيـــه العميقتين ، الصغيرتين ، دمعتـــان كبيرتان .. ورغم حاجبيه الكثيفين اللذين يغطيان عينيه ، خيل الي انه ينظر الي في حنان وحب ، اواه يا ابي لماذا خلقنا هكذا ؟

قلت بهدوء

ـ كيف .. هو

فلم يجبني احـد ، وتوقف خشيش الاغراض بين يدي اخي وهو يحشر الكتب في الحقيبة ، واعدت بصوت واضح .

ـ هل نام ؟

فأومأت مديحة براسها وهي تمسح انفها وفمهـــا بمنديل ابيض مطرز ثم قالت بلهفة :

-- هلا حاولت . مره اخرى ؟

– لا يمكن يا حبيبتي .. لقد انتهينا الا ترين كيف طردني؟

.. ارجو ان يعيش مستريحاً !.

ثم قلت بصوت جاف

– ليحمي روح اولاده ما شاء من كل الافكار الجديدة فقد ذهب الغول

قال اخي بصوت عاتب :

– انت تطرفت كثيراً يا حامد .. وقالت مديحة

– لقد كان يجب ان تدعه يعيش في هدوء .

يا اخوتي .. صحيح انكم بكيتم كثيراً ولكن ما فائدة ذلك اذا كنتم لا تريدون ان تفهموا ؟

لقد وقفتم -- كالعادة – جبهة واحدة حتى في ساعة الوداع ، عندما لمستم نعمتي القديمة التي تمس معتقداتكم .. هذه الحزمة القديمة البالية من الجنون .. تماما مثلما كنتم تقفون متحدين امام الابن الكافر الخطر ، الذي كنتم تدعون له في صلاتكم مبتهلين ، ليندمج في هذه المجموعة التافهة من النفوس المتسلسلة للخمول ، والتي تعلق كل شيء بارادة الله ومشيئته.. اني اعرفكم ! اعرف تماماً وجوهكم الخائفة المترددة حينما اتحدث اليكم ، وانتم تريدونها حولكم في قلق لئلا تضبطوا وانتم تتحدثون معي .. ليس سهلاً ان تفك ادمغتكم ويعاد تركيبها من جديـــد .. ان هذا يحتاج الى وقت طويل ، كنت اريد ان اقول لكم اشياء كثيرة مؤثرة .. وان اقنعكم ان في العالم اناسا طيبين ، بسطاء ، مظلومين .. يجب ان نفنى في

سبيلهم ، صحيح انكم كنتم في بعض الاحيان تقفون في صفي ، عندما اصطدم مع ابيكم ، ولكنني كنت دائماً في نظركم ذلك الضال ، العاق ، المطارد .. الذي يحتاج الى عفو الله ورحمته .

قلت لهم وانا اغالب آلام معدتي واشعر بحزن مغلق :

ـ هل .. انتهيتم ؟

فلم يرد احد ، وشعرت بالجو مشحوناً بأشياء غامضة حبلى توشك ان تنفجر ، فادرت وجهي للحائط واستعددت للحظة الحاسمة

ـ هل تريدون شيئاً ..

فهزوا رؤوسهم بالنفي وتشاغل اخي بقضم اظافره

ـ ان اراكم كثيراً ، ولكنني سأزوركم حتماً عسى ان يكون ذلك .. في السنة القادمة .

كلمة بسيطة ، عادية ، تجارية ، ولكن الجو تحول فجأة فاخذنا نبكي كلنا معاً .. واخذت انشج بعنف كأنما اعوض عن كل ما في قلبي من اسى ، ثم رفعت الحقيبة ، وسرت نحو الباب .. لقد كان من العبث ان اقطع هذا الشيء الحار الذي يحرق وجنتي ويذوب ملحاً في فمي ، وشعرت بيد اختي الصغرى سعاد تجذب كمي فافلت الحقيبة ثم اخذت اعانقهم واقبلهم ..

ـ سامحوني يا اخواتي سامحوني

ثم هربت نحو الباب وانا اسمع اختي تشهق

ـ ليغفر لك الله !! ..

ليغفر لي الله » لو قالتها في مناسبة اخرى لغضبت .. ولكني

في تلك اللحظة ، احسست انني في حاجة الى اي شيء ، ولو وهم مساعدة ..

وعندما اندفعت العربة وسياطها تقرقع على ظهري الحيوانين الاخوين كانت ذاكرتي تختزن كل الصور المؤثرة التي تجاهلتها في الداخل.. وجه مديحة الشاحب ، وتقاطيع اخي المعروفة الحزينة.. وعينا سعاد اللتان تغطيهما الدموع .. وحاجبا ابي الشائكان .. لقد كانت كل صورة ، تدفعني دفعاً لان ابكي طويلا . . وماذا بعد ، هل البكاء من الضعف بالدرجة التي يتصورها الكثيرون ؟

والتفت الحوذي بوجهه الغامض يمعن في النظر ، واخذ يلتفت بحيرة مرة بعد مرة ، فلا يجد منفذاً لحيرته سوى ان يسعل وان يفرقع بسوطه في الفضاء .

يا اخي الحوذي ، ترى بماذا كنت تفكر في هذا الشاب الذي كان يساومك قبل لحظات بعناد يريد ان يمتص آخر قطرة من ربحك الهزيل ، حتى اذا ما وصل ، اعترتك حيرة ، وترددت طويلا قبل ان تمد يدك المعروقة ، لتاخذ الاجرة ؟!

ها انذا وحدي الآن في غرفة راقبت جدرانها البلهاء، الف وجه غريب. انظر الى حوائجي المبعثرة، الساكنة تحت الضوء الكامد.. واتلمس للمرة العشرين علبة السجاير .. ناسياً انني احرقت آخرها قبل ساعة . وحولي رئات تتمدد وتنكمش وتحيا ، تقص معجزة الانسان .. واصداء الموسيقى البعيدة ، لا تزال تشق طريقها القصير الى سمعي ، والليل يجثم خارج غرفتي ويحاور الضوء الكامد في تشبث .

في جيبي عشرون ليرة وجدتها فجأة .. لا شك ان اخي وضعها في جيبي خلسة بعد ان جمعها من عمله القاسي .. وعندما ستنتهي هذه الليرات العشرون .. ساخرج من غرفتي هذه كالوطواط ، وابدأ صراعي المنتظر مع الجوع .

لا اريد ان افكر بالمستقبل ، فلدي الآن ما افكر فيه ، اشعر بانني قوي رغم كل شيء .. وانني وجدت ذاتي التي اضعتها منذ وقت طويل .. واحس ان عيوناً كثيرة تحدق في بنظرات حنونة مشجعة .. وانني وجدت طريقي المختفي بين الاشواك .

ترى هل نمتم الآن يا اخوتي ، بعد ان اتعبكم البكاء ؟. ام ما زلتم تفكرون في ذلك الراحل الذي ينام في غرفة غريبة بين اناس غرباء على سرير يئن تحته كلما قام باية حركة ؟

# اخي رفيق

كنت في العاشرة من عمري ، حينما جاءتني امي بثوب جديد رمادي فيه بقع سوداء . ولم يعجبني الثوب لان جيبه كانت صغيرة لا تتسع لبذر المشمش الذي العب فيه مع رفاقي بالحرام والحلال والزوج والفرد . وكنت واقفا امام الدرج ابكي بحرقة حينما جاء اخي رفيق يواسيني وكان شابا في الخامسة عشرة يعجبني فيه اناقته وبريق شعره وكنت اقف ساعات امام المرآة احاول ان اقلده .. قال لي بصوت حنون

– هل تريد ان تذهب معي يا سعيد ؟

فقلت بعناد

– لا

– طيب اذهب والبس حذاءك فاني سأذهب انا وابن عمك عدنان وصياح الى البرية .

ثم التفت حوله بحذر

– لا تقل لاخيك خيري فاننا نريد ان نسبح . . واحسست اصابعه تغرق في شعري وتشده برفق

– ساحملك على يدي اليمنى واسبح بك .. هل انت شجاع ؟ ارفع راسك دائماً وانا احملك وسترى كم السباحة هينة .

واسرعت البس الصندل العتيق الذي تقطعت اوصاله فان رجلي – كما تقول امي – تهري الحديد وفجأة سمعت صوت امي

– اين انت ذاهب ؟

– مع اخي رفيق

– لا .. لن تذهب ان ام تحسين الشيخة ستجيء اليوم وهي تريد ان تراك

– لا اريد ان اراها اني اكرهها

فقطبت امي جبينها وقالت بغضب

– اخرس ... انها عملت لك حجاباً لتقيك من نزيف الدم الذي يلح عليك .. انها مبروكة

فبصقت بشدة فصفعتني امي وهي تتعوذ بالله من هـذا الجيل الذي هو افجع على حد تعبيرها وعند ذلك قعدت عـلى الارض الوسخة بثوبي الجديد وانا ابكي وافحص البلاط بقدمي.

ونظر الي اخي نظرة عطف وهو يحمل بيـده المؤونة ثم قال بهمس :

– اسكت .. ساحمل لك معي كثيراً من القرعون . ثم خرج وامي تراقبني حتى لا الحقه

وجاءت ام تحسين الشيخة وكانت كامدة صفراء تبدو كالشيطان فربتت على كتفي برفق ، وشعرت بالاشمئزاز عندما مرت على خدي بيدها الخشنة التي تشبه ليف الحمام ، ثم رفعتني الى حجرها وهي تتمتم ببضع كلمات غامضة فاستولت علي الرهبة واخـذت اتابع حركة يدها وهي تمر بها على اعضاء جسدي وانا ارتجف ، وانتهت

التكبيسة بسلام فهبطت وانا اتنهد ثم اخرجت من صدرها خرقة صغيرة مكومة وقد ربط على جانبيها خيط ابيض ثخين فعلقته على صدري وهي تدمدم وتقول لامي

– مبروك الحجاب يا ام رفيق

– الله يبارك فيك يا ام تحسين ، القهوة يا بنت ..

فنظرت ام تحسين الى الحجاب بطرف عينها ثم قالت بصوت مبحوح :

– والله كلفني كثيراً هذا الحجاب لقد عذبني كثيراً الملك الاحمر حتى استطعت تخليصه منه

– كل ما تريدينه حاضراً يا ام تحسين ..ولو ... كم ام تحسين عندنا

وفي اللحظة التالية عدوت نحو الباب ثم غبت في زحام السوق.

واجتمعت برفاق لي في الطريق واخذنا طريقنا الى البرية . . الى بستان يدعى ( البحصة ) وتسلقنا الدك ثم قفزنا واحداً واحداً مجتازين النهر الصغير الذي ينساب وراء الدك وانزلقت رجلي وانا اقفز فسقطت فيه وتلطخ ثوبي الجديـــد بالوحل وتصورت الضرب المبرح الذي سيستقبلني به ابي ولكن نظرات رفاقي الخبيثة جعلتني ارفع رأسي بكبرياء .

وامتلات جيوبنا بالقرعون عندما سمعت صوتاً هائلاً يصيح بنا فركضنا مذعورين وتركت الصندل على الارض ثم تسلقت الدك بسرعة فعلق طرف ثوبي بحجر ناتىء فتمزق ولكنني لم ابال به بل ركضت نحو البيت وانا اتلفت وعندما لم اجد احداً تنفست بارتياح

ونظرت الى ثوبي ورجلي الحافيتين فدق قلبي بعنف وفجأة سمعت صوتاً لصديق لي .

ــ سعيد . . سعيد

ــ نعم

ــ لقد مات اخوك .. رفيق فاندفعت اقول بغضب

ــ اخرس بدون علك .. اما مزحة باردة .. منـــذ ساعة كان معي

ــ والله مات .. اختنق في بركة العرقسوس . . الا تصدق ؟

ــ من قال لك ؟

ــ كل الدنيا عرفت .. امتلاءت البركة بامة الله وقد اخرجته الاطفائية

تركته وسرت بسرعة وكانت نظرات الناس قدلي ايدت الخبر وشعرب بشيء غامض مجهول يقبض على قلبي .. مات اخي مامعني مات .. وكان الناس جميعهم ينظرون الي بعطف ورثاء مما اثار في الارتباك المشوب بالزهو وكنت اهم اذا ما رأيت رجلاً لا يحفل بي .. امسكه من تلابيبه واقول له :

ــ اخي مات اختنـق .. في بركة العرقسوس . . والله مات اخرجته الاطفائية وعندما اقتربت من البيت سمعت العويل ، فدق قلبي واصفر وجهي ورجفت ركبتاي ورأيت جمعاً كبيراً مـن الاطفال حول البيت فدفعتهم عني بعنف متكبر ثم دخلت المناحة .

كانت الدار غاصة بالنساء ورأيت امي منفوشة الشعر وانفهـا يلمع في وجهها المليء الشوندري وهي تلطم وجهـــا وتعول بينما

كانت اختي الكبرى تمسك منديلها الابيض الصغير وتمسح به دموعها وصرخات غريبة تتردد لم افهم منها سوى انها صرخة لوعة صادقة:

– يا ضيعة شبابك يا حبيبي

– يا ليتني مت قبلك يا ابني

– لتنطفىء عيوني ولا اراك هكذا

وحيثما تلفت لا ارى حولي سوى وجوه حمر وعيون دامعة واكف تلطم الخدود فوقفت كأنني غريب وحرت فيما افعل وفي اللحظة التالية لمحتني امي ممزق الملابس ، غارقاً في الوحل ، حافي الاقدام فاحسست بالذعر ولكنها لما قربت مني اشتـــد بكاؤها وهزتني بعنف ثم ضمتني وهي تقول والدموع تقطع آهاتها :

– لقد مات اخوك يا حبيبي مات وذهب الى الابد

وازدادت ضمتها عنفاً وشراسة فرأيت الدموع تنساب من عيني بهدوء وشعرت بدوار لذيذ وتمنيت ان ابقى على صدرها هكذا الى الابـــد

وشعرت امي ببكائي فقالت بحنان

– لا تبكي يا ولدي .. لا تبكي يا حبيبي .. ثم تركتني ودخلت الى الصالون الكبير

وغرقت في الجو حولي فبكيت طويلاً دون ان احس بشيء من الحزن بكيت لان امي تبكي ولان الجو حولي كله صراخ وبكاء وعويل وكنت اذهب الى باب البيت الكبير فارى الاولاد مجتمعين فيرمقونني بنظرة عطف واكبار وتهيب وهم يرون عيوني المحمرة ودموعي المنسابة ولكني لا اعبأ بهم بل اقطب جبيني ثم

اصفق الباب في وجوههم

وانتابني عطش شديد فذهبت الى الفيجة فرأيت منظراً عجيباً رأيت احدى قريباتي قد امسكت بفنجان فيه ماء واخذت تصب قطرات في عينيها حتى تظهر وكأنها تبكي حقاً فلما رأتني نظرت الي بذعر ثم هربت فنظرت حولي بحذر ثم فعلت مثلها ولم اكتف بذلك بل بللت يدي بريقي وصرت افرك عيني حتى احمرتا تماماً فرجعت منزهواً الى المناحة

وسألت عن امي فقالوا انها في الصالون

وفي الصالون كانت تستقبلني رائحة نفاذة ورأيت في الصدر كومة بيضاء على السرير وقد انتفخ وسطها ونظرت الى ابي الصامت وامي الباكية واخوتي المطرقين ثم اقتربت بهدوء فرفعت اللحاف الناصع عن رأس الكومة فبدا لي وجه اخي المرعب . . . كانت عيناه مغلقتين ووجهه اصفر وقد تلبد شعره الجميل ولكنه كان لا يزال يبرق وبرزت العروق من وراء بشرته الرقيقة وفوق حاجبه الايسر ضربة قد تجمد الدم فوقها فارجعت الغطاء وجلست وانا مطرق

قال اخي عادل

– لو انه نزل البركة من الناحية الثانية . . لم ينتق الا اعمق الامكنة

فقال ابي بصوت متهدج وهو يرفع يديه كمن يستسلم للقدر :

– منيته يا ابني .. منيته .. لا تقل من هذه الناحية او تلك الناحية عزرائيل قاده ولعب بعقله حتى اوقعه .. لقد كان ينتظره

وتابع اخي عادل

- لقد اصيب بالصخرة فارتبك و كأن قاع البركة مليئاً بالوحل فعلقت رجله فيه ولم يستطع التخلص لقد شده احد الفلاحين من شعره بدون جدوى

فقال اخي خيري وهو يلثغ ويفرك يديه

- عندما اخرجه الاطفائي قلب رأسه للارض .. واقسم بالله، خرج من بطنه ماء قدر القربة

قال ابي ثانية بصوت متهدج :

- حكم الله ولا راد لقضائه « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

فقالت امي مندفعة

- الله لا يأخذ الا الطيبين الممتازين

فقال ابي غاضباً

- لا يا ام رفيق استغفري ربك اللهم لا اعتراض على حكمك

فتابعت امي كأنها لم تسمع

- نهلك بالولد ونتعب به ونضع له دم قلوبنا ونفرش له ريف عيوننا فاذا كبر وصار .. قصف الله عمره هذا ظلم .. هذا

فقال ابي كمن يتضعضع

- صلي عالنبي يا ام توفيق هذه حال الدنيا . . ان الله مع الصابرين

قالت امي وهي تعول وتنظر ناحية الفراش :

- يا ليتني اموت الان والحقك واتخلص من الدنيا الملعونة هذه

قال اخي الكبير :

- الآن هو في الجنة روحه ترفرف علينا اليس كذلك يا ابي
- نعم نعم .. هنيئاً له على هـذه الميتة اليوم الجمعة ومات والتذكير يملاء الفضاء ويمثل هذه السن .. هو الان عصفور بالجنة اللهم احشرنا في زمرة المؤمنين

ووقع نظري على برميل ( البريلكريم )وفكرت حالا انه بقي لي الان لا ينازعني فيه منازع ، وكذلك كل ادوات الزينة التي كانت لاخي اصبحت لي الان وبدلاته الفخمة ساصغرها وافصلها جميعها لي .. وشعرت بشيء من الارتياح، لقد اداني البارحة ليرة كاملة استأجرت بها دراجة وذهبت بها حتى بكداش فاكلت كأساً من البوظه وقد ذهبت هذه الليرة ولن يأخذها مني بعد الان ، وفكرت في المدرسة لا شك انني لن اذهب اليها الا بعد اسبوع، وسأتخلص موقتاً من الشيخ طالب وفلقته وعبدوافندي ومسطرته، وساقضي هذه العطلة في البرية فاذهب كل يوم لانهب القرعون ولن تنتبه الي امي وهي مشغولة الان بموت اخي .

وقطع علي تصوراتي صوت امي وهي تسال :
- هل نزعت منه الخاتم والساعة يا عادل
- نعم يا امي
- وبذلته التي كان يلبسها اين وضعتها
- في غرفته
- سأضع كل امتعته في خزانة خاصة لاشم فيها ريحته كل يوم
قالت ذلك وهي تضرب كفاً بكف وتتنهد
فقال ابي كمن يهرب من حلم

– توفيق

– نعم يا ابي

– هل اعدت معدات الجنازة

– كل شيء جاهز

– اذن فلنقم

فتعالى صوت امي بالبكاء وشاركها اخوتي ولكن أبي زجرهم برفق ودموعه تخذل جلده المتكلف فخرج من الغرفة هارباً وصوت البكاء يملاء فضاء البيت كعويل الشياطين في ارض شاسعة خالية

كان المساء قاتماً مزعجا والتعب قد هد كياني فانسللت من ( الصبحية ) لانام وكانت غرفتي ثاني غرفتين الاولى لاخي رفيق والثانية لي ولاخي الكبير .. وشعرت بالخوف وانا امر امام غرفته وكان كل شيء بالغرفة مجللا بالسواد ، وكل نتوء يرعبني فيخيل لي انه رأس انسان .. ماذا لو قام الان من وراء السرير فبحلق في وجهي..لا شك انني سأصرخ وسألقي نفسي من النافذة وتذكرت قصصا كثيرة لاموات يقومون وتذكرت سحنته والجرح فوق حاجبيه فكاد يصيبني الدوار فهربت الى غرفتي ، واسترعى نظري فوراً البذله البنية التي كان يلبسها اخي رفيق اليوم ، لقد وضعها اخي عادل هنا حتى تضمها امي الى الخزانة

لاحظت الانتفاخ في جيبها اليمنى فمددت يدي في تهيب فغرقت في القرعون .. اذن لقد تذكرني اخي قبل ان يموت وها هو القرعون الذي وعدني به ، وشعرت لاول مرة بحزن مبهم .. ورفعت رأسي وانا اتصوره قد كبر حتى ملأ الغرفة .. هل مات

حقا .. هل ذهب الى الابد ؟.. ما هو الموت .. هل هو عصفور في الجنة الآن كما قالت امي ؟ .

في مثل هذا الوقت من كل مساء كان ياتي الى غرفتي فيدخن سيجارة وهو يتحدث مع اخي عادل في السياسة والادب والسينما والممثلات وانا اجلس مبهوراً انظر اليه والى شعره اللامع وقسماته النبيلة واعبده بصمت.. وكان ينظر الي فاحس بعينيه الجميلتين تغرقان وجهي في دغدغة ناعمة كشعر حسناء وكان يسالني عن دروسي ويساعدني في حل مسائل الحساب واعراب بيت القواعد الذي يعيده علينا استاذنا في كل مناسبة

أنا الذي نظر الاعمى الى ادبي          واسمعت كلماتي من به صمم

ونظرت الى الباب علي ارى وجهه الجميل وقامته المهيبة وبشرته الرقيقة التي تظهر عروقه من ورائها وشعرت بهوة تحفر بين رجلي وبدوار غامض يهوي على رأسي بمطارق قوية ولكنها ناعمة .. لقد مات حقاً ..اخي العزيز الحبيب ولن اراه الى الابد..لن يساعدني في حل مسائل الحساب وسانظر دائماً الى اخي عادل وسينظر الي وسنطرق معاً وننظر الى مكانه ويد اخي عادل ترتجف بسيجارته ونصمت ثم ينتهي كل شيء . لاول مرة شعرت فجأة بحزن شديد ففهمت بكاء امي واخوتي ولاول مرة ايضاً طمرت رأسي باللحاف واخذت ابكي بصدق وعنف حتى انطفأت النجوم .

# ساعي البريد

عبرت سور الحديقة، وانا ارتجف ، فتلك هي المرة الاولى التي دعتني فيها ، ثم تباطأت خطواتي قليلاً قليلاً حتى وقفت امامها وانا مطرق واجم .

آه ، انها تبدو اصغر بكثير مما كنت اعتقد يوم ان قابلتها لاول مرة، وهي تنزل من العربة المتواضعة وتستأجر البيت الذي بجانبنا في مصيف الزبداني الهادىء ، فتركت مقابلتها الاولى في نفسي تأثيراً سحرياً ، فتمنيت ان تطول قامتي ويكثف شارباي وان يسمر لوني قليلاً لابدو امامها رجلاً حقاً .

ونظرت الى بذلتي القصيرة باشمئزاز وادرت ظهري لها ثم مشيت متثاقلاً حتى اخفاني عن نظرها « باص » طويل ، وعندها اخذت اركض الى البيت .

ولاحظت امي بعد ذلك « ان عيوني قد غاصت قليلاً » وان « اخلاقي تزداد سوءاً » وان شهيتي للطعام اخذت تقل ذلك «لانني اصبحت ذا نفس كبيرة تأنف من الالوان التي تقدمها » ولاحظت «انني اسهر كثيراً لسبب غير معقول وذلك من تأثير الروايات السخيفة الرذيلة التي اقرأها » وانني « اخذت من والدي اكثر عاداته السيئة التي طواها الموت منذ سنة» وانني اذا استمررت على

هذا الحال » فسأنحف كالفأر وسيصبح انفي الكبير هو كل وجهي وذلك كما قالت شيء لا يطاق » .

ثم نصحتني بوجهها اليابس كالتين المجفف ان ارجع الى عقلي واقلع عن غروري وفظاظاتي الكثيرة »

قالت السيدة بهدوء : — اسمك ؟

فرفعت حاجبي الكثيفين وانا انظر الى عينيها الخضراوين اللتين شملتاني بنظرة حانية ، طالما افتقدتها من امي الغليظـة وتذكرت كلماتها الغاضبة :

« انك مثل ابيك لا تصلح لشيء » « وجهك كالقرد بشاعة » « لا تتعالى علي بكثرة معلوماتك فانت ومدرستك لا تفهم شيئاً » . . .

وقلت للسيدة :

— اسمي احسان ، احسان جيرودي

— ماذا ؟ .. هل عيناها هما اللتان تعكرتا ام بحيرة خيالية ؟ واتسعت حدقتاها واخذت تتفرس في بدهشة ارسلت الى نفسي بعض الذل والحنق ، وخيل الي انني دينار زائف بين يدي صيرفي ماهر .

وقالت اخيراً — وقد لاحظت ان نبرة صوتها موسيقية كما هي العادة وان بحة خفيفة كانت تجرحني كالعنب الحلو —

— اريد ان اكلفك بمهمة .. هل تقبل ؟

واستندت على جذع الصنوبرة الكبيرة فوقنـــا بدلال وهي تنتظر جوابي ، فاخذت ابلع ريقي ، واتلفت حولي كأني ابحث عن شيء ضائع ...

طبعاً .. الذي تأمرين به .. انا مستعد لأية خدمة .

ولاحظت انني اقتبست هذه الجملة من الحلاق المجاور عندما كان يخاطب امرأة مسنة في الاسبوع الماضي » وفاجأني صوتها :

ـ هل تعرف النادي الجديد في طريق المصيف القديم .. تعرفه ؟ عال .. خذ هذه الرسالة وسل عن حسن ، حسن القباني واعطه اياها ، اسرع ، اسرع يا شاطر .

وكان يجب ان احنق لانني سمعتها البارحة تدحرج امام كلبها طابة وتقول له :

ـ هيه . بوبي .. هاتها ، اسرع . . اسرع يا شاطر ولكني قلت .

ـ امرك يا سيدتي .. حالاً ..

ثم استدرت بعجلة واخذت اركض دون ان التفت الى الوراء

ووصلت الى النادي بعد نصف ساعة ، فسألت عن الاستاذ حسن القباني فخرج الي رجل قصير اعجف ، احسست بالكره له .مددت قامتي وقلت بوقار :

ـ رسالة لك يا سيد حسن .

فنظر الي بدون اكتراث ومزق الغلاف بهدوء اثارني ثم اخذ يقرأ ، ووجهه الذي يشبه الجمجمة يتقلص ، ثم شملني بنظرة مزدريه وقال باختصار . ـ انتظر ..

واختفى في احدى الغرف الجانبية وهو يهز كتفيه . واخذت اتطلع الى جدران النادي : ثمة صورة رجـــل في الحائط يبرز عضلاته ، وهناك على الحائط المقابل،صور كثيرة لممثلات وممثلين ، وتحتها تعليقات بالقلم الرصاص لم اكلف نفسي قراءتها وكانت تعلوها

شهادة كبيرة للنادي بجودة لاعبيه موقعاً عليها توقيعات كثيرة .

واحسست بيد توضع على كتفي وبصوت يقول : — خذ ..

فاخذت الجواب وخرجت مختنقاً من هذا المخلوق الذي لم يكلف نفسه عناء النظر الي وهو يعطيني الجواب .

ووجدتها تطل من نافذتها تنتظر وتحدق في الافق البعيد ولما رأتني لوحت بمنديلها — واظنه كان ملوناً بلون غير مألوف — وسألتني ان اصعد اليها .

وقادتني خادمة ضخمة الارداف ، حذرة النظرات الى مخدعها وكانت جالسة على طرف السرير في غلالة رقيقة تبرز صدرها الذي كان مبللاً بالعرق لشدة الحر ، ونهديها اللذين تجمعهما حمالة بيضاء عليها تطريز من قصب فغضضت بصري حياء ، ولكنها لم تشعر بشيء من ذلك بل كان كل همها منصباً على الرسالة مما اشعرني بتفاهتي ، ورأيت على وجهها نوعاً من الغضب المكبوت وهي تقرأ الرسالة ...

ثم انفجرت فجأة تقول : — النذل ... الكلب ... الجبان .

وقفزت عن مقعدي ، وخيل الي ان الكلمات تصفعني بمطرقة من اشواك ، واخذت اتراجع ببطء ، وانا اسمع سيل السباب يخرج من شفتيها الحمراوين « وقد كانت لا تطليهما بالاحمر ابداً ولعلهما حمراوان من اكل التفاح اذ لاحظت بقايا التفاح في الاناء الابيض الموضوع فوق الطاولة » واخيراً احسست انني اكاد اخرج من الباب هارباً ، فكتمت غضبها ثم انقلبت وقالت بلطف ورقة .

— تعال هنا .

فتقدمت كأنني اتعلم السباحة لاول مرة ، فنظرت الي طويلاً

ثم قالت بصوت غريب: — نفس الملامح. . والطول... والانف،
انك تشبهه دون شك ثم اضافت بسرعة:
— اذهب ... اذهب وتعال غداً في مثل هذا الوقت.
وانطلقت وقد خيل الي ان دمعة كانت تملأ عينيها.

●

واخذت اتابع مهنتي الجديدة شهراً كاملاً، ولاحظت امي مرة ثانية انني «اصبحت كالبنات اقف ساعتين امام المرآة» وان الاناقه في المصيف عمل شاذ اذ انه يقتضي البساطة وانني استنفذت قنينة العطر التي اشترتها» وانني «ابدو مضحكاً في الربطة المنتفخة المنقوشة كقنفذ آخذ بخناقي» الى غير ذلك من الاقوال التي اقابلها بثورة جامحة، وكانت تلمح لي بانني «لم اعد اهتم بها وبالبيت» وبانني «اصبحت كالمكنسة يستخدمها اناس غيرها».

مضيت في مهمتي بحذر وانا ازداد كل يوم تعلقاً بالسيدة الغامضة الجميلة وكنت اسأل نفسي دائماً من يكون هذا الحسن القباني القصير الاعجف البغيض، الذي بدا لي ان اجاباته للسيدة فيها تسلط ونفوذ كأنه يملك قيادها؟واشتدتلهفي لمعرفة هذا السر.

كنت اسلمها الرسالة فتلاطفني بان تربت على كتفي وشعري كما تفعل لكلبها بوبي، وكنت اتمنى عبثاً ان تنظر الى شواربي وقامتي وامارات الرجولة التي كنت احاول ان اظهر بها من رفع للحاجب واطباق للفكين وقلب للشفة. وكانت تلاحظ غضبي فتضمني الى صدرها الخافق في حنان مثير، فاتمنى ان اقبلها في فمها وخديها، ولكنها كانت تتخلص مني بلطف ثم تودعني الى

الباب .

وفي يوم خافــق الحر ، سلمتها الرسالة ، ووقفت انظر الى المداخن من خلال النافذة ، وقد بدا دخانها يصعد في الجو عمودياً تحركه نسمة ، وكانت اشجار الصنوبر تحترق عن بعد مـن الحر ، وبخيل الي ان بريقاً وبخاراً يتصاعد من رؤوسها ، وكان يقطـع الطريق رجل عجوز وقد نشر مظلته البيضاء وتوكأ عـلى عصا انكسر مقبضها ، بينما كانت امرأة تهدد بائـع التفاح بيديها في عنف ...

وفجأة ، سمعت صوتها ينشج ، فالتفتت كالملسوع فاذا هي تبكي بجدة ! .. وخيل الي ان شراييني قد اصبحت كالحديد المحمي ، كيف استطيع ان اخفف عنها ؟ كيف ؟ ساقتل ذلـك الكلب الاعجف . واستمر البكاء دون ان تلتفت الي وعندها فعلت شيئاً لم ادر سببه الى الان ... اكان يمكن ان يحصل ذلك . المهم انني صحت بصوت ذاو بانني لن اسلمها رسالة بعد الآن ، وانني ذقت بحبها الدنس ، وانني لسعيد جـداً اذا ما دعست صاحبها القميء الاعجف باسفل حذائي ... وانني ...

ولكن سكوتها الطويل القى علي لوحاً من الثلج ، فهدا غضبي وتمنيت ان انزلق هارباً من الباب ، ولكنها قالت اخيراً بهدوء كأن شيئاً لم يحدث : — تعال هنا

نفس الجملة التقليدية التي لا اجد حيالها سوى ان اطيع ،فتقدمت خاضعاً ، وامسكت بيدي في مرح وهي تجلسني في حضنها ، ثم ضمتني الى صدرها وشدت على اذني برفق وهي تقول :

— آه يا احسان .. انك اصبحت مخيفاً حقاً ...

اصبحت غيوراً لا تطاق،لقد خيل الي انك ستقتلني فغمغمت في ارتباك — عفواً يا سيدتي .،. اغفري لي ... لانني .

— اسكت انا اعرف ما تريد ان تقول ، ساعفيك من مهمتك، ولن اشق عليك بعد الآن ؟ خذ هذا الكتاب الاخير ... ساكتبه بينما تصنع الخادمة القهوة ...

ثم وقفت كملكة متوجة ، وسرحت الى النافذة ببصرها الحالم ، وعادت عيناها تبرقان ، ثم نادت بصوت قوي :

— يا منيرة . يا منيرة . .

وسمعت صوت انغلاق احد الابواب الجانبية وصوت وقع خطا خفيفة .. ثم انتصبت الخادمة ذات الارداف الثقيلة على الباب ، ووقفت تنظر باحترام الى مولاتها التي اخذت تنظر من النافذة مرة اخرى .

قالت اخيراً بهدوء خيّل الي انها تتكلفه :

— اذهبي الى بيت فؤاد وادعيه حالاً :

— امرك ستي

وقفزت الخادمة وارادفها تتبعها حتى اختفت، فنظرت السيدة الي وفاجأتني بهذا السؤال :

— هل كنت تحب اباك ؟

— من ؟ ابي ؟ ابي انا ؟

ووجدت يداها تدفعانني وهي تردد :

— اذهب .. وسلمه الرسالة الاخيرة .. موعدنا غداً ..

ولما خطوت نحو الباب صاحت قائلة :

ـ قف قليلًا ..

وفي اللحظة التالية وجدت نفسي بين ذراعيها ، وهي تشبعني لثماً وتقبيلًا .

•

كنت اسير في عالم سحري ، الكتاب في يدي لذعة نار، وصدى قبلاتها يدوي في اذني فأحس بالدم في وجهي حاراً، وقلبت الكتاب بين يدي، ثم فتحته لاول مرة بحذر ( وكانت لا تغلفه بالصمغ وهذا دليل اماني ) ثم قرأت فيه :

« أخي حسن ..

لن تراني بعد الآن.. ادّع لنفسك الشرف ما شئت ، لقدقلت انني في اشد الحاجة لمئة ليرة ، ولكنك أبيتها عليّ وانت الذي تربح ما تربح . لقد كان خطأي انني قاومت فؤاداً والتجأت اليك وانا اعرف انني استطيع ان اغرف من ماله ما اشاء.. ولكنك كنت دائماً الرجل الذي يتكلف الفضيلة .. والان لن اراسلك ، ولن تراني ولتذهب الى جهنم )

اختك سميرة

سمّرت في مكاني ، وتلاحقت ضربات قلبي ، فتلفت حواليّ بذعر ، اذن فهي اخته ، ولا شك انها في ضائقة مالية شديدة .. يا للكلب .. ساكتم انفاسه ، سأقطع رقبته.. سأ..ومددت يدي الى جيبي.. مئة ليرة يا سماء .. واصطدمت اصابعي بالليرة اليتيمة التي أعطتها لي امي عن جمعة كاملة ..

ـ ماذا افعل ؟ خطر لي ان ابكي لألمها، ولكن ذلك بدا لي

عملاً احمق .. لماذا لا اصفّر مثلاً او اغني اغنية شائعة ؟ ولكن .. لا .. شيء بارد .. بارد جداً ، اذن فلأستسلم للصمت ، وذلك ما عجزت عنه ايضاً ، فركضت مسرعاً كأنني واقع تحت كابوس ، فوضعت الكتاب في النادي وعدت الى البيت كالمجنون

– امي .. يا امي يا حبيبتي الا تسمعين ؟اريد مئة ليرة.. اقول مئة ليرة . نعم انا مجنون .. انقذيني بمئة ليرة .. فقط مئة ليرة يا ناس .. يا عالم .. لا تضربيني بعد الان .. آخ ، لا تضربيني.. انا لست طفلاً ، اريد مئة ليرة او انتحر .. اموت ..

وعندما أفقت في اليوم التالي كانت اسناني غارزة في الوسادة.

•

لبست مسرعاً ، وخرجت الى الحديقة المألوفة ... يا الله .. النوافذ مغلقة في هذا الحر ؟ هذا ليس ممكناً ..

وطرقت الباب فخرج البستاني وصعدني بنظرة بلهاء أرعبتني وهو يقول :

– نعم ..

– السيدة يا سيد عبد الفتاح .. السيدة

– لقد ذهبت صباحاً وتركت البيت

– ماذا ؟ ..

– ذهبت صباحاً برفقة شاب اسمر طويل الانف جاحظ العينين كانت تناديه على ما أظن ..

– نعم .. نعم ..

– اسمه .. اسمه يا عبد الفتاح .. اللهم صل على سيد المرسلين ..

آه اسمه فؤاد

ـ آه ... فؤاد ..

واستدرت الى البيت وانا ارتجف كأنني احمل جبلا من الثلج، فنظرت الي امي بخبث وقالت :

ـ ما بك ؟ ..

ـ لا شيء ... ابتعدي عن طريقي

ـ اخرس يا ولد، يلعنك الله من قليل اصل

ـ قلت لك اذهبي من وجهي .

ـ ها ... لقد رحلت اذن ... وخلصتنا من شرها ودنسها.. هذه اللعينة الفاجرة .

والواقع ان دهشتي فاقت غضبي ، وخيل الي انني سأصفع امي صفعة يحمر لها وجهها الاصفر ولكنني تمالكت نفسي وصحت.

ـ انها خير منك.. انها سيدة راقية.. انت لا تفهمينها ياامي.. انها اكابر .. اما نحن .

ـ ها .. اكابر ؟ هل تجرؤ على القول ان هـذه المومس خير مني يا كلب؟.. هذه الفاجرة الشهيرة التي ضج المصيف من عهرها.. لقد اورثك ابوك اخلاقه السافلة .. يا .. يا ..

ولم اسمع كلماتها الاخيرة.. ودوت اذناي.. مومس شهيرة.. ضج المصيف .. لقد استغفلتك . انها كانت تعرف اباك ..

ودارت الارض حولي وخيل الي انني في بئر لا قرارة لها .. وان الصنوبرة العتيقة قد فغرت فروعها الواخزة في اسفل البئر ، وتلقفتني اشلاء ... اشلاء .

# وفي الناس المسرة

أحسست فجأةً ، ان أنفي الخائن الثائر ، قد ارتدّ اليّ طائعاً ، فتدفق الدم من شرايينه في عنف آلمني .. يا لهذا الأنف اللعين ينفصل انفصالاً عن بقية الجسد ، ويستقبل وحده ... مترفعاً ، تياهاً ألسنة الزمهرير .

وكان يمكن ان يستمر هذا الوضع الغريب لولا انه..هناك.. في ركن دافىء وسط الضجيج .. كانت عدة شمعات ، تسعل لاهثة تحاول ان تقاوم الضوء الاحمر .. جانب السرير المجهد البارد، وقد أخذت تتراقص تاركة في جو الغرفة ، رائحة خاصة.. شكلت مع رائحة العطر الرخيص ، وروائح المياه القذرة ، تحت الطاولة الحديدية ، نوعاً من الاحساس بطرافة الحياة .

عيد الميلاد ؟ وما هو عيد الميلاد عن شخص مثلي ، نزل الى المدينة .. فلاحاً .. جافاً .. يبحث في المدينة الكبيرة لمجرد البحث .. ولمجرد ان يقول لاصدقائه غداً .. وهو يملأ صوته بحماسة باردة ، كعاطفة سياسي محترف :

— نعم يا أصدقائي .. هناك .. في المدينة الكبيرة ، قضيت عيد الميلاد ؟؟ .

كانت وحدها .. في المدينة الكبيرة العجوز .. التي تحاول ان

تكون أضواءها الكثيرة دليلاً على حياتها.. وكانت لا تستطيع ان تخدعنا .. نحن فقط .. لاننا نعرف ، ان وراء كل ضوءٍ من هذه الثريات المتلألئة .. قصة يائسة . فارغة . تافهة . تعيشها المدينة الكبيرة . في اشخاص التفوا حول الموائد . . يدلكون خدودهم في عنف لتندفع فيها حمرة السعادة ، ثم يشربون .. ويشربون..

وينبعث صوت أحدهم :

ــ المجد لله في العلا . .

ويقطع الثاني جرعته ، وهو يدندن كأنه يردد محفوظاته :

ــ وعلى الارض السلام ..

ولن يقول الجملة الثالثة احد .. لانه سيشغل بملء الاقداح الفارغة . . .

أمللتِ التمثيل يا صغيرتي الحزينة ؟ . كل شخصٍ في المدينة الكبيرة قد استطاع ان يمثل ، وان يجيد التمثيل .. وهو يعلم تماماً ان بينه وبين رفيقته . . والقلب على القلب ، والشفةُ على الشفة . . بعد سراب العطشان . . ومع ذلك ، انه يمثل يا صغيرتي . . انه يملأ حياته على كل حال . . فلماذا ، يا صديقتي الحزينة ، انت وحدك . هنا .. مع هذه الشمعات الساعلة ، التي تنافس الضوء الاحمر الظافر ... تخلعين الشعر المستعار ? . .

لم تقبليني يا صغيرتي .. حدقت في بلاهة . .

ــ لا أشتغل الليلة .. عفواً

لقد لطمتني . بطرقة من اشواك .. كم رددت.. يامسكينة. هذه الجملة لمن جاءوا قبلي .. وعيونهم الحمراء تلتهم جسمك . .

المهزول كبقايا سيجارة عامل .. المعروق كوجه ساكن زنزانة..
ثم لفت عيونك ، ترمقين الشمعات في لهفة وأنت تسترحمينها ان
تقاوم .. لحظة بعد اخرى .. اللهيب الجائع النشوان ؟ ؟ ! !
ـ لا اشتغل الليلة .. عفواً ..
أنا مثلك يا حزينة .. قد خلعت الشعر المستعار ، لاني لم اجد
من يقوم بالدور معي .. اسمحي لي ان ادخل الى محرابك المقدس ..
هذا المحراب الذي يدخله كل ليلة عشرات الاشخاص . يترنحون ..
ويعربدون . ويصيحون .. ويحركون شفاههم وايديهم ويخرجون
من جيوبهم شيئاً يظنون انه الثمن ..
هذا المحراب الذي ملأته الليلة بالدموع ، والشموع ، تجلسين
امام المدفأة كهرة اليفة وانت تحدّقين في الابعاد .. ما وراء الحيطان
التي يتراقص عليها اللهب ، كخيمة اراجوز عتيق .
كان انفي يؤلمني جداً وانا ادور في الابهاء .. واصوات مرعبة
قوية تنبعث من وجوه نحاسية تنادي وتحث عـــلى الاسراع ..
متنقلة كاللولب .. حاملة الماء .. رادة على الشتائم . محركة جيوبها
برنين الفضة . وكنت افتش عن واحدة لا تعد ( الفيشات ) وانا
أضمها . ولا تقول بآلية :
ـ اسرع . . هناك من ينتظر .
ودرت خمسين مرة . . وحفظت الوجوه . . والاخاديد . .
والسيقان .. والنحور .. والنظرات المرسومة بعناية . يا الهي ..
أليس هناك شخص يقول معي بحماسة :
ـ وفي الناس المسرة ؟ ؟ ..

وملات الطواف .. واستهدفت لنظرات شزرة من اصحاب الوجوه .. النحاسية ، وانا واقف مستند على حائط ملىء بتوقيعات وبجمل ، لا ينقصهـــا التنميق .. ووردت عشر مرات على اسئلة غريبة .. واستهدفت مرتين للتفتيش . ثم اخذت ادور من جديد . وابواق السيارات خارج الاسوار تدعوني ساخرة . وفي الدرجة الثالثة شددت باقتي واحكمت الشال حول عنقي .. ثم وزعت نصف علبه السجائر على ايدٍ تمتد بدون تكلف .. وأحببت ان اشغل نفسي بأي عمل .. وسمعت أصواتاً تقول :

- نريد سميرة

فانضممت الى الزمرة وهتفت بصوت ضعيف اخذ يزداد مع الترداد قوة :

- نعم .. اين سميره

ولعننا شرطي ذو شاربين معقوفين وادارت لنا عجوز رأسها نافرة .. واندفعنا نبحث عن سميرة :

قلت لرفيقي أكل الجدري وجهه

- ومن هي سميرة

- والله علمي علمك ..

وصرخ احدهم

- ها هوذا ضوءها مطفأ .. ان لديها زبوناً وسماً

- يا سميرة .. استعجلي يا سميرة .. عرق السقف يا سميرة . سمورتي .. سميرا ميس .. سمور !! ه !! ..

وانبعث النور فجأة وفتح الباب وخرج الينا ساقا ن عاريان

يحملان وجهاً ينبعث الشرر من حدقتيه . وعوت وهي تسوي شعرها الاجعد

ــ امشوا . .

وصاح احدهم

ــ أي والله كي . كي

ــ حبيبي .. روحي . مئة مرة قلت لكم .. انا الليلة مشغولة. العمى .. فظاعة .. تفيه واغلق الباب بعنف .

واخذت ادور من جديد .

***

كان بابك .. يا صغيرتي الحزينة .. مواربا وكانت تلك الرائحة الغريبة تتسرب هاربة من الشق .. ولمحت عدة شموع .. وسريراً يسع خمسة .. وهرة امام مدفأة ، تحدق في الابعاد .

وترددت دقيقة ، وعيناي بلهاوان ترقبانني من بعيد وصوت شيء ينكسر .. مع شتائم ورنين قبلة ..

ثم فتحت الباب :

ــ لا اشتغل الليلة .. عفواً

ودارت عيناي بالمحراب المستباح .. كان كل شيء يغري بالنوم .. الى الابد .. واحسست بصدر حار يضمني وانت تحركين النار .

ــ لا مؤاخذه .. بخاطرك

ولم تردين .. ولماذا ؟. ستردين على مئة جواب من هــــذا النوع .. واغلقت الباب ، واحسست بالبرد من جديد .

مشيت خطوتين ثم استدرت .. وفتحت الباب ثم اغلقته ودخلت .

وتطلعت الي بنظرة سمرتني .. لقد استطعت .. ولو لفترة ، ان تكوني صاحبة هيبة ، وكنت استعطف بعيني :

ـ لا اريد شيئاً .. اريد .. فقط .. ان اجلس

ومرّت لحظة .. ثم ابتسمت بآلية :

ـ تفضل .

وجلست كتلميذ مذنب .. واخذت اتطلع الى الغرفة الغريبة . فالى جانب السرير .. كانت هناك شجرة متواضعة قد صفة عليها اصناف اللعب واضواء باهتة مع تماثيل كثيرة ..

كان الامر بسيطاً يا قديسة ، لدرجة انني شعرت ان هـــذه التماثيل كانت هادئة .. باسمة ، كأنها مطمئنة الى هـــذا المحراب الغريب .. وكنت لا تنظرين الي وانما تعبثين بأيقونة كانت تتأرجح على صدرك الجاف

ـ هل تدخنين ؟

واستلت العلبة الغالية .. وقدمتها لك في شيء من عـدم الاكتراث المصطنع .

ولكنك رددت بهدوء :

ـ شكراً .. لا اريد ان ادخن ! ..

وهبط عن وجهي آخر اقنعة التمثيل ، ونظرت اليك بخجل ولكنك اخذت تبتسمين ..

اخذت انتظر يا صغيرتي الحزينة .. ان تسردي علـيّ قصة حياتك .. ان تروي لي قصة شاب خدعك .. فهربت من اهلك

الذين يبحثون عنك في كل مكان حتى يغمدوا في صدرك خنجر الثأر ، ويمسحوا عن جوانبه ، دم الشرف الرفيع .. ولكنك قلت ببساطة :

– انني ولدت هنا .. هل رأيت تلك العجوز التي تقرقر النارجيلة في الصالة ؟..

وفتحتِ المدفأة واخذت تعبثين بالنار ..

– انها امي ! .

وحدّقتِ الى الابعاد من جديد .

واخذت اتكلم .. تكلمت عن اشياء كثيرة .. عن الحياة .. والمتاعب .. ووفاء الناس .. وكنت اريد ، ببراعة ، ان اجعلك تتكلمين عن ذلك الرجل التافه ، الذي تتأملينه وراء الابعاد .. والذي اسلمته ، باخلاص ، هذا الشيء الذي تسمينه قلبك .. واخيراً سألتك بصراحة عن رجلك البعيد :

– رجلي ؟

ورفعت الى عينين لم تعرفا الكذب

– لا افهم .. ماذا تعني ؟ ..

ولفظت شمعتان آخر انفاسها .. وفرغت علبتي الغالية . . ورأيتك تسرعين الى درج صغير ، فتقدمين اليّ سيجارة رخيصة .

– آسفة ليس عندي الا من هذا النوع ..

قلتها بسخرية ناعمة .. ثم اخذتِ تضحكين .. وتتحدثين ..

تحدثت عن حياتك .. وعن زبائنك .. وعن دخلك .. ببساطة لا تشوبها مرارة .. وكنت تذكرين مضايقات الناس ، وشعرت أنني اصبحت معك في المحراب .

ـ ولماذا لا تشتغلين الليلة ؟

فنظرتِ إليّ بحدقتين مدهوشتين :

ـ انه عيد الميلاد ... حرام .

***

في المدينة الكبيرة .. يا ياصديقتي الحزينة .. وفي هذه الغرفة الدافئة الصغيرة .. الممتلئة بالشموع .. وجدت نفساً تحاول ان تحيا .. ان تتنفس بدون منديل . لن انس ابداً ..ما حييت.. هذا السرير الكئيب .. والحيطان القاسية .. واللعب المتناثرة على الشجرة الصغيرة .. والمياه القذرة المستعملة تحت المنضـــدة الحديدية التي تآكل دهانها الابيض..وسيظل محفوراً بذاكرتي .. صوتك العادي كملايين الاصوات التي لا تمتاز بشيء .. وصدرك الجاف الذي امتص كبرتقالة ريانة . ونظراتك الغريبة الحالمة .. التي لا تعنى شيئاً . وحياتك الخالية من الذكريات الدافئة ... حياتك التي تقدم دومـاً على البذل .. على العطاء الدائم .. او لست تتخلين لأي رجل عن خمس دقائق من وقتك .. لأجل ان يستمتع ؟ أو لست خيراً منا جميعاً ؟...

وهناك .. في زاوية عميقة من زوايا قلبك المهترىء يظل حبك للناس حاراً دافئاً كليلة صيفية ..

ـ لا تقل شيئاً عن أمي .. انها مسكينة ..

هذه الذئبة العادية .. بوجهها الكنود المرقع .. ونارجيلتها الخالدة .. لم تستطع ان تحقق في قلبك ذلك الاحساس بالقداسة. ولن انس صوتك الزاجر الدهش عندما حدثتني عن رجل سكران

قاء ما في بطنه على صدرك وهو يتلكك .. وعندما حاولت ان اظهر عطفي عليك .. وابادر الى سب ذلك المقرف حتى اندفعت قائلة :

ــ لا تقل شيئاً .. يا صديقي .. فحيـاة اكثر الناس عندنا كئيبة جداً ...

ــ ماذا فعلتِ ؟ألم تصرخي وتدعي اصحاب الفيشات ليخلصوك من هذا او ...؟

ونظرتِ اليّ بدهشة اذهلتني :

ــ أبداً لقد مددته على السرير .. وبعد ان غسلت صدرى .. أسعفته ببعض الليمون ..

ثم قلت مزهوة :

ــ انني اعرف تماماً ما يتوجب عليّ في هذه الحالات .. قليلٌ من الليمون يذهب مرارة السكارى .

بهذه البساطة التي تفرك القلب اخذت تعالجين مشاكل الناس المعقدة .. وكم من الوقت يلزمنـــا . . نحن اصحاب النفوس الملتوية .. ان تعرف ان حياة اكثر الناس عندنا كئيبة حقاً .. وانها تستحق ان تمد اليها يد المساعدة لتحسينها ؟ .

يا قديستي انت فقط التي رددت عـــليّ وان كانت شفتاك لم تتحركا .. عندما اخذت أردد حالماً ..

ــ وعلى الارض السلام .

وكانت عيناك تقولان

ــ وفي الناس المسرة ...

ولم يكن هناك واحد يتشاغل بملء الاقداح الفارغة .

# كتاب الرابطة

سلسلة كتب شهرية تصدر عن
رابطة الكتاب السوريين

- يصدر كتاب الرابطة في مطلع كل شهر .
- تشرف عليه رابطة الكتاب السوريين .
- يصدر منه كتاب خاص كل اربعة اشهر .
- يقوم اعضاء الرابطة بتأليف او بترجمة معظم كتب السلسلة
- تقدم الرابطة من وقت لآخر في سلسلتها افضل ما ينتجه كبار الادباء في العالم العربي .
- ليس لهذه السلسلة موضوع معين ، فهي تعنى بجميع المواضيع الادبيه والعلميةوالسياسية والفنية وشؤون الساعة
- كتب السلسلة غزيرة المادة زهيدة الثمن .

**... مع النـــاس** بقلم حسيب الكيالي

جميع ما كتبه مكسيم غوركي عن اميركا تقرأه في الكتاب الثالث من سلسلة حقيقية اميركا : U. S. A. بلاد الشيطان الاصفر
ثمنه ليرة لبنانية

مطابع الاتحاد - بيروت
الثمن ١٠٠ ق. ل.